ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٠]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ، أخي المؤمن، لتُغيِّرَ لون المشهدِ العام الذي كانَ سائداً خلالَ الآياتِ السابقةِ عليها، وقد رأينا كيفَ أنه كان مشْحُوناً بالحُزنِ والقَلقِ والتَّوتُّر، وكان الإحصارُ قد بلَغَ مداه، سواءٌ لناحيةِ عدم نَجاح رِحْلَةِ الإخوةِ إلى مصر، أوْ لِناحيةِ جواب يعقوبَ عليه السلامُ على طلبهِم بأخْذِ ابنِه الأصغرِ منه، فإذا بهذه الآيةِ تَحْمِلُ انفراجاً واسِعاً، وتتبدَّلُ معَها الوقائعُ لتَحْمِلَ طيْفَ الأحداث التي ستَتَوَالَى تِبَاعاً كما سنَرَى في لاحقِ الآيات.

وأتوقَّفُ هِنَا قليلاً لأُقارِبَ هذا المبدأ العامَ على كلِّ ظُروفِ حياتِنا: فإننا نمُرُّ بأَزماتٍ قد تبدو خانِقَة، ويتراءَى لنا أنّ جميعَ الطُّرقِ والأَبوابِ مسدودةٌ، وكُلَّ السُبلِ مقْفَلَة، فإذا بالفَرجِ يأْتي مِنْ حيثُ لا نَدْري، يُرْسِلُه الله تعالى تثبيتاً لقلُوبِنا، ومِصداقاً لقولِ الله تعالى: ﴿فإنّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً﴾[1].

يقولُ الله تعالى في الآية موضوعِ تأمُّلِنا اليوم: **﴿ولمّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إليهم﴾**.

في هذا الشَطْرِ مِنَ الآيَةِ لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنا لتوقيتِ فَتْحِ المَتَاع:

لقد قَطَعُوا مسافةً بعيدةً جداً، سَارُوا خِلالَها حِيناً، وأَنَاخُوا واستراحُوا حِيناً

(١) [سورة الشرح، الآية: ٥].

آخَر، واستَعْمَلُوا مِنْ أدواتِ الرحلةِ ما يَحتاجُه المُسافِرُ عادةً، إلا أنَّ هذا كُلَّه، مَعَ حُضورِ الحواسِّ الخَمْسَة، عندَ الإخوةِ العشَرَة، لم يَكُنْ كافياً لمعرفةِ وُجُودِ البِضاعةِ في الرِّحال، طِيلة فترةِ السفرِ، وهذا أمرٌ مُذهِشٌ حَقّاً، ويَستحِقُّ مِنّا التأمُّلَ والتَّساؤُلَ، إلا أنَّ دَهْشَتَنا تَزولُ حينَ نُسَلِّمُ بمسألةِ التغْمِيَة. ومُفَادُها: وجودُ مشيئةٍ إلهيةٍ تقْضِي بإبقاءِ مسألةِ وُجودِ البِضاعةِ في الرِّحالِ خافيةً على الإخوة، حتى وُصولِهم إلى مَجْلس يعقوبَ عليه السلام.

وكانت أدواتُها تعطيلَ كُلِّ آلاتِ التعريفِ التي يتَمَتَّعُ بها كلُّ واحدٍ منهم، مِنْ نَظَرٍ، وسَمْعٍ ولَمْسٍ، وتحليلٍ عَقْلِي، واستنتاجٍ مَنْطِقي، ومُقارنةٍ حسية، وتساؤُلٍ داخلي عن تصَرُّفِ الدوابِّ وحالِها، وحِسِّ التحقُّقِ مِنْ عدَمِ نسيانِ أيِّ شيءٍ قَبْلَ المغادرةِ.. كُلُّ هذا، تعَطَّلَ لدى الإخوةِ لأمرٍ أرادَهُ الله تعالى، فتَسِيرُ خُطَّةُ يوسفَ عليه السلام، على النَّحْوِ الذي أراد.

اللطيفة الثانية: في وقُوفِنا عِنْدَ تصَرُّفِ الإخوةِ حالَ وصولِهم إلى دِيارِهم: أوَّلُ شيءٍ فَعَلُوه، هو أنَّهم أقْبَلُوا على أبيهم وسَلَّمُوا عليه، حتى قَبْلَ أنْ يَفْتَحُوا متَاعَهم.

وهنا نَلْحَظُ أدَب الأبناءِ مَعَ يعقوبَ عليه السلام، فلقد بَدَأوا بالسلامِ عليه قبلَ أيِّ شيءٍ، ثم انْطَلَقُوا إلى حَلِ الرِّحال.

وهذه إشاراتٌ لطيفةٌ نتعَلَّمُ فيها مِنْ أدبِ القرآنِ الكريم، كيفَ نكونُ مَعَ آبائنا في احترامِهم وخطب وُدهم وطلب رضاهم.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عندَ الأسلوبِ اللُّغويِّ الذي نَلْحَظُه في هذه الآية، والذي يتناسَبُ مع جَوِّ الانفراجِ الذي تَحْمِلُه، فتَلْحَظُ سهولةَ انسيابِ العِبارةِ في إيجازٍ بديعٍ يَنقل معه إلى الذِهنِ الكثيرَ مِنَ الصُّورِ الحِسّيةِ والمَعْنَوِيّة:

فنرى الإخوةَ يفتحونَ الأمْتِعة، وقد رَفَعَ الله تعالى عَنْ أبصارِهُمُ الغُمّة، فرأوْا مشْهَداً جميلاً لم يتَوَقَّعُوه أبداً..

ونستشعِرُ معهم فرَحَهُمْ برؤيةِ البِضاعةِ، وقد ظَنُّوا أنّ عزيزَ مِصْرَ احتفَظ بها، ونستَشْعِرُ مَعَهُم الدهشة والإرباكَ في مُحاولةِ فَهْمِ ما حصَل، وكيفَ حصَل، ونسْتَشْعِرُ معهم تجدُّدَ الآمالِ في حَلِّ عُقْدَتِهم، وانتهاءِ مِحْنتِهم.

فتَدَافَعَتْ لديهم الأفكار، وانقلبَ الإحباطُ عزيمةً ونشاطاً، فهُرِعُوا إلى أَبيهم مِنْ جديد، أكْثَر جُرأةً وأعزَّ ثِقة، وعادُوا يَطْلُبونَ مِنْه إرسالَ أخيهم معهم.

نتابعُ معَ الآيةِ فنقرأ: ﴿**قالوا يا أَبانا ما نبغي هذه بِضاعتُنا رُدَّتْ إلينا ونَميرُ أهْلَنا ونَحْفَظُ أخانَا ونَزدَادُ كَيل بعير ذلك كيل يسير**﴾..

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدَّة:

اللطيفة الأولى: في وقُوفِنا عِنْدَ الأسلوبِ الخِطَابِيِّ الذي يَعْتَمِدُه الإخوةُ في مُخاطبةِ يعقوبَ عليه السلام:

فمنذُ الآياتِ الأولى في هذه السورة، ومَع بَدْءِ كُلِّ حديثٍ يَجْرِي بينَ يعقوبَ عليه السلامُ وأبنائه، نسمعُ الإخوة يقولون:

﴿**قالُوا يا أَبانا مالَكَ لا تأمنا على يوسفَ وإنا له لناصِحون**﴾(١).

ثم عِنْدَ بَدْءِ مجلسٍ آخر نسْمَعهم يقولون: ﴿**قالُوا يا أَبانا إنّا ذَهَبْنا نستَبِق**﴾(٢). ثم عِنْدَ بَدْءِ المجلسِ الثالثِ نَسْمَعُهم يقولون: ﴿**قالوا يا أَبانا مُنِع مِنّا الكَيل**﴾(٣). وها هُم في المجلسِ الرابعِ يقولون:

﴿**قالوا يا أَبانا ما نَبْغي**﴾.

عِلْماً بأنّ المعنى يَكْتَمِلُ دونَ ذِكْرِ عبارةِ يا أَبانا.

---

(١) [سورة يوسف ، الآية: ١١].

(٢) [سورة يوسف ، الآية: ١٧].

(٣) [سورة يوسف، الآية: ٦٣].

وفي هذا، إشارةٌ أُخرى إلى الأدبِ القرآنيِّ في كيفيةِ التعامُلِ معَ الآباء.

اللطيفة الثانية: في مُلاحَظتِنا لهذا الزَّخْمِ الكبيرِ الذي حَوَتْهُ الآيةُ الكريمة، يُظْهَرُ بوضوح، الإعجازُ القرآنيُّ في الإيجاز. ففي شَطْرِ آيةٍ واحدة، كان في خطابِ الأبناءِ إعلامٌ عن خَمْسَةِ مواضيع مُخْتَلِفَة. كُلُّ واحدٍ منها يحمل معْنى خاصاً في تَسَلْسُلٍ منطقيٍ بديع:

فقالوا أولاً: ﴿يا أبانا ما نَبْغي﴾ وهُمْ بذلكَ يُشيرونَ إلى حل العُقَدِ التي تكاثَرتْ عليهم، الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى، في تأزُّمٍ تصَاعدِي حتى بلغتِ الذُّرْوَة في الرفضِ المبدئيِّ ليعقوبَ عليه السلام، بإرسالِ ابنهِ الأصغرِ معَهم، فكانَ في قولِهم **﴿ما نَبْغِي﴾**، إيذانٌ بانفراجِ الموقفِ في جماليةٍ لُغويةٍ نادرة..

ثم قالوا ثانياً: ﴿هذه بِضاعَتُنا رُدَّتْ إلينا﴾ وهنا أساسُ الانفراجِ المادِيّ. الذي بمُوجَبِه سيكونُ لهُم القدرةُ على العَوْدَةِ ثانيةً إلى عزيزِ مصر، للحُصولِ على المؤَن.

ثم قالُوا ثالثاً: ﴿ونَميرُ أهْلَنا﴾ أي نُؤَمِّنُ لهُم الطَعامَ اللازَم في وقتِ عَزّ الطعامُ في بقاعِ الأرض، وأصبَحَ تأمينِه أعْلَى أولويةٍ في اهتمامات الناس، فهم يُشيرونَ بذلك إلى مُوجِب المحافظةِ على الحياة..

ثم قالُوا رابعاً: ﴿ونَحْفَظُ أخانا﴾ أي إنَّ وجودَ البضاعةِ في الرِّحال، وهي بذلك بينَ أيدِينا، يَضْمَنُ لنا عِنْدَ اصطحابِ أخينا سلامتَه، لتوافِقَ حالِنا معَ شروطِ العزيز، في مبادلةِ البِضاعةِ بالطَّعام..

أمّا لو أخَذْنَا أخَانَا دونَ البِضاعة، فاحتمالُ الإرباكِ موجود.

ثم قالوا خامساً: ﴿ونَزْدَادُ كَيْلَ بعير﴾ وفي هذا إعمالٌ للفِكْرِ الرياضيِّ، في محاولةِ تكثيفِ المَنْفَعَةِ المُحَصَّلَة، إذْ إن فيها رَفْعاً لمستوى الطُّمأْنينةِ الذاتية، بوجودِ كميةٍ أكْبَر مِنَ الطعام، لعدمِ وضوحِ مآلِ القَحْطِ في حَقِّهِم.

اللطيفة الثالثة: في مُلاحَظَتِنا للترتيب التَّصَاعُدِيِّ الذي اعتمدَهُ الإخوةُ في إقناعِ أبيهم بإرسالِ الأخِ الأصغرِ معَهم، وهذا يدُلُّ على ذكاءٍ عالٍ، نتعلم منه أسلوبَ الإقناعِ التصاعُدِيّ التراكُمِيّ:

فقد بدؤا بإحلالِ الطُّمأنينةِ بذِكْرِهم لوجودِ البِضاعة: وهذا دليلٌ مادِيٌّ محسوس، تَحتاجُ إليه قاعدةُ الإقناع.

ثم ذَكَرُوا إشباعَ الحاجة، وفي هذا سَدُّ مصدرِ القَلَقِ في النفس.

ثم انْطَلَقُوا إلى التدليلِ على الحفظِ المادِيِّ للأخ، حالَ ذَهابِه معَهُمْ. إذ إنه بُنِيَ على دليلٍ مادي.

ثم رَفَعُوا مستوى الإقناع إلى أقْصاه، حينَ صَوّرُوا ازديادَ الرِّبْحِ بكيل بعيرٍ إضافي.

ثم أنهَوْا حِوارَهُمُ الإقناعيّ بعبارةٍ لطيفةٍ بقولهم: ﴿**ذلك كيلُ يسير**﴾.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الإقناع يحتاج عناصر ومقومات، وينبغي أن يبنى على أسلوب متين متماسك، ولقد سلك أبناء يعقوب هذا المسلك مستعملين كل عناصر الإقناع: تصوير جسامة المشكلة والواقع المعاش، وذكر الخيارات المفتوحة، والمفاضلة بينها، واحتساب مقدار الخسارة، إيضاح مقدار الربح وتبيين مدى المخاطرة، ثم الوصول إلى النتيجة المرجوة.

٢ - للدلالة على أن بر الوالدين مقدم على جلب المصالح والتلهي بالتحصيل المادي. ونأخذ المثال الصريح الواضح فيما فعله أبناء يعقوب عليه السلام، إذ أنهم أول ما فعلوه عند وصولهم أنهم أتوا ليسلموا على أبيهم، ثم التفتوا بعد ذلك لفتح متاعهم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥١]

توصلنا هذه الآية أخي المؤمن، إلى نتيجةِ ما قَرَّرَهُ نبي الله يعقوبُ عليه السلام، بشأنِ إرسالِ ابنه الأصغر، معَ الإخوة، وقد تأمَّلْنا في الآيةِ السابقةِ سعَة الانفراجِ الذي حَصَلَ بعدَ ضِيقٍ وإحصار، في تَتابعِ هذا المشْهَدِ منَ الحوارِ بينَ يعقوبَ عليه السلام، وأبنائه، وهو حوارٌ، اتَّسَمَ في بدايتِهِ بالأدب، ثم بالطَّلَب، ثم بالرَّفْض، ثم بالدَّهْشَةِ والاستغراب، ثم بانتعاشِ الآمال، ثم بعودةِ الطَّلب.

يقولُ الله تعَالى في بدايةِ الآية حكايةً عن نبي الله يعقوب عليه السلام: **﴿قالَ لن أرسِلَهُ معكم حتى تُؤتُونِ مَوْثِقاً منَ الله لتأتنني به إلا أنْ يُحاطَ بكم﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقُوفِنا عندَ الأُسلوبِ البلاغِيّ الجميل، الذي اعتمَدَهُ يعقوبُ عليه السلامُ في إجابتِه لطلبِ أبنائه. فهو يقولُ: لنْ أُرسِلَهُ معَكُمْ ولسانُ حالِه يقول: سأُرسِلُه معكم.

إلا أنه اشترطَ للإرسالِ أمراً عظيماً، يَحْسَبُهُ الناسُ هيناً وهو عندَ الله عظيم: **﴿أن تُؤتُونِ موثقاً منَ الله لتأتُنَّني به﴾**.

فعلى الرُّغمِ من التجربَةِ المريرةِ السابقة، بِفَقْدِ يوسفَ عليه السلام، لم يَفْقِدْ يعقوبُ عليه السلامُ ثِقَتَهُ بِعُمْقِ إيمانِ أبنائِه وخوْفِهم مِنَ الله تعالى، وهو على يقينٍ بأنَّ إعطاءَهُم المَوْثِقَ منَ الله تعالى، هو التزامٌ راسخٌ منهم بالمحافظةِ عليه.

وبملاحظتِنا لنوعيةِ الحوارِ الذي دارَ بينَ الأبناءِ ويعقوبَ عليه السلامُ منذُ سنواتٍ عديدة قبْلَ أخْذِهم يوسُفَ عليه السلام - لم يَشْتَرِطْ يعقوبُ عليه السلامُ عليهم الموثِقَ منَ الله تعالى، قبل أخذِ يوسفَ عليه السلام بإعادتِه، لعدمِ وجودِ السّابِقة. وفي هذا تعليمٌ قرآنيٌ لنا، بوجوبِ الإفادةِ مِنَ التجارِبِ السابقة، وعدمِ الوقوعِ في الأخطاء ذَاتِها مرة أخرى.

اللطيفة الثانية: لُغويّة، في استمتاعِنا بتناغُمِ العِبارةِ في قولِ الله تعالى على لسان يعقوبَ عليه السلام: ﴿**تُؤْتُونِ مَوْثِقاً منَ الله لتَأْتُنَّنِي بهِ**﴾. ومعنَى العبارة: تُعْطُوني مَوْثِقاً منَ الله تعالى، بأَنكم ستَعُودُون بهِ، وشتّانَ بينَ جماليةِ الآيةِ القرآنية، وبينَ ما سُقْنا مِنْ معنًى مُرادِف.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لِعُمقِ إيمانِ يعقوبَ عليه السلام، الذي يَتبدّى في هذه اللحظاتِ العصيبة، عندَ اتخاذِ قرارِ الإرسال:

فإنّ أصْعَبَ شيءٍ عليه في الدُّنيا، في هذه اللحظات، هي إرسالُ ابنِه الأصغرِ بعيداً عنه، إلى حيثُ لا يَدْرِي، إلى بلدٍ بعيد، تحُفُّهُ المخاطِرُ مِنْ كُلِّ جهة.

وهو، رغبة منه بالحصولِ على المؤنِ، قِبلَ إرسالَه مُشترِطاً على أبنائه بَذْلَ كُلِّ الجُهْدِ في الحِفاظِ عليه والعودةِ به.

وهو رُغْمَ كُلِّ حِرْصِه على عودةِ الابنِ الأَصغر، ارْتَضَى بعدمِ عَوْدَتِه إذا شاءَ الله تعالى عدمَ العودة، وهذه قمةُ التسليمِ المُطْلَقِ بقضاءِ الله تعالى، إذْ نسْمَعُه يقولُ علَناً أمامَ الأبناء. مُعلّماً لنا شَجَاعةَ الجَهْرِ بالتسليمِ بقضاءِ الله تعالى: ﴿**إلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُم**﴾.

وبيانُ قوله: رُغْم شِدّةِ تَعَلُّقي بوَلَدِي الأصْغَر، وهو الذي يُواسِي وحْدَتي

بعد ذَهابِ يوسفَ عليه السلام، ورُغْمَ حِرْصي على عدمِ ذهَابِه بعيداً عنّي، ورُغْمَ أنّي رَضِيْتُ مُرْغَماً بذَهَابِه معَكُم. في صَوْنِكُمْ ورِعايتكم وشديد حِرْصِكُم على العنايةِ بهِ، إلا أنّي أُسَلِّمُ بقضاء الله تعالى إذا ما قَضَى ألا يعُودَ إليَّ، راضياً قانِعاً قانتاً لله تعالى، مُسلِّماً له في كُلِّ ما أمَر وَقضى.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا آتَوهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ الله على ما نقولُ وكيل**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدّة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلنا لهذا الشعورِ الخَفِيِّ الذي يَغْمُرُنا حينَ نسْمَعُ قول الله تعالى، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهم، أنَّهم حقاً صَادِقُون في وعْدِهم. ولم يَخَامِرِ الشَكُّ إنساناً قَرَأَ هذه الآية في يومٍ منَ الأيام، إلا وَوَقَرَ في قَلْبِه أنَّهم صَادِقون، وهذا ما نُسَمِّيه بِسِحْرِ بيانِ القرآنِ الكريم، وهذا سِرٌّ منْ أسرارِ الله تعالى في القرآن الكريم، إذْ تَتَضَمَّنُ الكلماتُ والعِباراتُ قوةَ إقناعٍ لا تُضاهَى، يطمئِنُ بها قلبُ المؤمنِ فتزيده إيماناً وثِقَة، ولو تجَرَّد كُلُّ البَشرِ منْ أحكامهم المُسَبقة على دينِ الإسلام، وانْعَتَقُوا لبرهةٍ وجيزةٍ منْ وسوسَةِ الشيطان، وقرأُوا آياتِ القرآنِ الكريم، لوَصَلُوا حَتْماً إلى نورِ الهداية.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لحالِ الأبناء، وهم يُعْطُونَ المَوْثِقَ لأبيهم بالمحافظةِ على أخيهم الأصغر:

فلقد أعادَهُمُ الموقفُ الحاليُّ إلى مَوْقِفِهِمْ السابقِ، حينَ أخذوا يُوسُفَ عليه السلام، وكانَتْ نِيَّتُهم غيرَ سلِيمة، لكنَّ واقِعَ حالِ مَوْقِفِهم في هذه اللحظاتِ مُخْتَلِفٌ تماماً:

فلقد أعطت نتيجةُ الرحلةِ وما رافَقَها منْ أحداثٍ زَخْماً عَالياً جَعَلَهُمْ في موقفِ الباحثِ عن حلٍ لمسألةِ الطعام.

وهُم الآنَ في موضعِ مُؤاخَذَةٍ وإصلاحٍ لما تَسَبَّبُوا به مِنْ ألمٍ وأذى لوالدِهم، وسيَبْذُلُونَ قَصَارَى جُهْدِهم لإثباتِ حُسْنِ نِيّتِهم.

وهم بحاجةٍ حقاً لإجابةِ طلبِ العزيز، برؤيةِ أخيهمُ الأصغر، فقط ليس إلا في ظَنِّهِم، وستكونُ مسألةً سهلةً بسيطةً لا خَوْفَ فيها ولا خَطَر فيها.

اللطيفة الثالثة: في وقوفنا عِنْدَ دقة العبارةِ القرآنية، فيما أَجابَ يعقوبُ عليه السلامُ حينَ أعْطَوْهُ المَوْثِقَ إذْ قال: ﴿**الله على ما نقولُ وكيل**﴾.

أمّا نحنُ، فلقد اعتَدْنَا، في مِثْلِ هذه المواقف، أنْ نسْمَعَ القائل: والله على ما نقولُ شهيد...

إلاّ أنّ قَوْلَ يعقوبَ عليه السلامُ هنا، وكيل، أبْلَغُ وقْعاً وأغْزَرُ معنى:

فهو طَلَبٌ ودُعاءٌ، في آنٍ واحدٍ، منَ الله تعالى بالمعونةِ والمساعدَةِ في إتْمامِ الأمر، وحينَ يقول وكيل، فهو يُعْلِنُ بذلك اشتراكَهُ معَ أوْلادِهِ في طلبِ المعونةِ منَ الله، وكأنّه يُصَوِّرُ لنا أنه يقِفُ معَهم في جهةٍ واحدة، يطْلُبونَ معاً النُصْرَةَ والمَعُونَة.

أمّا أنْ نسْمَعَهُ يقولُ شهيد. فهو تَعبيرٌ عَنْ إثباتِ معْرِفَةِ الله تعالى لما يَحْصُلُ منْ أمرِ المَوْثِق، ثم إيكالٌ لأمْرِ صِدْقِهم في حُسنِ النيةِ إلى الله تعالى، ويَبْقَى هو في طرف، والأبناءُ في طرفِ آخر.

لقد أرَادَ يعقوبُ عليه السلامُ أنْ يُبْلِغَنا أنه فِعلاً صدَّقَهُمْ في قولِهم وأنه أوْكَل أمْرَهُ معَ أبنائه إلى الله تعالى، لتيسيرِ أمرِهم.

فانْظُرْ أخي المؤمن إلى دقةِ القرآنِ في المعاني والإشارات.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على مستوى التسليم المطلق بقضاء الله تعالى الذي يمكن أن يصل إليه الإنسان إذا ما أخلص عبادته لله تعالى. فهو بذلك يشعر أنه برعاية الله تعالى وتحت الطافه، وهو مستعد أن يتخلى عن أعز ما يملك، لعلمه بأن الله تعالى عليم بحاله، ولن يتخلى عنه وهكذا كان حال يعقوب عليه السلام حين قبل بتسليم ابنه الأصغر.

٢ - للدلالة على أن الخضوع لحكم الله تعالى، أعلى بكثير من كل الرغبات والأهواء، وكل حب نكنه لأبنائنا وأحبابنا، فيعقوب عليه السلام. رغم كل حرصه وحبه لابنه الأصغر، يرتضي مسبقاً بحكم الله تعالى إن كان هذا الحكم يقضي بعدم عودته إليه. وهكذا يجب أن نكون نحن أيضاً في تعاملنا مع طوارىء الحياة.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٢]

تحملُ لنا هذه الآيةُ، أخي المؤمن، على لسانِ يعقوبَ عليه السلام، مَنْهَجاً عامّاً في الحياة، يَصْلُحُ للتطبيقِ في كُلِّ زمانٍ ومكان، ويُعَدُّ قاعدةً أساسيةً مِنْ قواعدِ عِلْمِ الاجتماع، كما أنَّ فيها مبدأً أساسياً مِنْ مبادىء العقيدة، معَ انسياقِ تطبيقِه على العلومِ البشريةِ كافة، وخصوصاً في مُعالجةِ أمراضِ النفسِ ومشاكلها.

نبدأ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة.

يقولُ الله تعالى: ﴿**وقالَ يا بنيَّ لا تَدْخُلوا مِنْ بابٍ واحدٍ وادْخُلُوا من أبوابٍ متفرقة**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في فَهمِنا للبُعدِ الذي رَمَى إليه يعقوبُ عليه السلام. فلقد سبَقَ للأبناءِ أنْ ذَهَبُوا إلى مصر في رِحْلَتِهم الأولى، التي باءَتْ بالفَشَل، ولم يَدْعُهُم في المرةِ الأُولى أنْ يَدْخُلوا مِنْ أبوابٍ متفرّقة.

ولقد تفتَّحتْ أذْهَانهم وأعْيُنهم على حضارةٍ عظيمةٍ مُتقدِّمة، ورَأَوا المدنية والعُمرانَ، والأبنيةَ والأبراجَ والطُّرقات، ورَأَوْا أنّ المدينةَ يُدْخَلُ إليها مِنْ أبوابٍ عديدة، ولعَلّهُمْ نَقَلُوا ذلكَ إلى يعقوبَ عليه السلام، فإذا به الآن، وهو يُعِدُّ العُدّةَ لإرسالِ ابنه الأصغرِ معهم، يعْمَلُ على إفهامِهم بوجوبِ توخّي الحيطةِ والحَذَر، وذلك بشَحْذِهِمْ نفْسِياً بطريقةٍ تصاعُديّةٍ مُتدرِّجة.

فإذا به يبدأُ بقولِه: ﴿**لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحدٍ وادْخُلوا مِنْ أبوابٍ مُتفرِّقة**﴾ تنبيهاً إلى وُجوبِ عدمِ لفْتِ الأنظارِ إليهم، وذلك لِدَفْعِ الحسَدِ عَنْهُمْ مِنْ جِهَة، وإفهاماً لهم بأنَّ الرحلةَ هذه المرةَ ليستْ رحلةً عادية، بل على مستوىً عظيمٍ مِنَ الأَهميةِ والتوتُّر.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عند قولِه: ﴿**يا بَنِيّ**﴾ وهنا نَسْتَشْعِرُ الإيناسَ والرِّضى، وكأنّهُ بذلك يُعْلِمُهُمْ عنِ القبولِ والتَّجَاوُبِ معَ مسْعَاهُمْ في تحصيلِ المُؤَن، وفي ذلك أيضاً، إشارةٌ ضِمنيةٌ إلى وجوبِ الاستماعِ إلى ما سيَلْحقُ هذه العبارةَ مِنْ نَصائحَ وتوجيه، فيكونُ وَقْعُ التوجيهِ أبْلَغَ في نفْسِ مَنْ أعْلَمْتَهُ مُسَبَّقاً بحُبِّكَ له وَوُدِّكَ.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفنا عِنْدَ دلائلِ ما يَحْمِلُه هذا التوجيهُ مِنْ معنى:

فلقد علِمْنَا أنّ يوسفَ عليه السلام، كانَ على درجةٍ عاليةٍ جداً مِنَ الجمال. ولا يَبْعُدُ أنْ يتمتّع إخوتُه أيضاً بِقِسْطٍ وافرٍ مِنْه.

ولقد عَلِمْنَا أنَّ عدَد الإخوةِ عشَرَة، يُضَافُ إِليهم الابنُ الأصغر، فصارَ العدد أحد عشَرَ رجلاً أصحاءَ أشِدّاءَ إخوة، حسان الوجوه، وهذا أمرٌ نادِرُ الحصولِ بينَ البَشَر، وأغلبُ النّاس تتمنى أنْ تُرْزَقَ ذريةً تتمتَّعُ بهذه المواصَفات.

من هنا، جاءَ خوفُ يعقوبَ عليه السلامُ على أبنائه، إلا أنه ليس السبَب الأساسِيّ، على ما سنَرَى في الآيةِ اللاحقة.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يعقوبَ عليه السلامُ مُتابعاً: **﴿وما أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ الله مِنْ شيءٍ إن الحُكْمُ إلا لله عليه توكّلتُ وعليه فلْيتوكَّلِ المتوكِّلُون﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لاستمرارِ الشَحْنِ النفْسيِّ الذي اعتَمَدَهُ يعقوبُ عنيه السلام لإفهامِ أبنائه دِقَّة وصُعوبة المرحلةِ القادِمَةِ عليهم في سَفَرِهم.

فبعد أنْ نصَحَهُمْ بالدخولِ مِنَ الأبوابِ المتفرقة، وهذه إشارةٌ أولى إلى وجوبِ أخْذِ الحِيطة والحَذَر.

أفهَمهم أنه لا يستطيع مُساعَدَتَهم، إذ إنه بعيدٌ عنْهم، حتى وإنْ كان نبياً من أنبياء الله تعالى، وأنه لا يُغْني عنهم منَ الله منْ شيء، وهذه إشارةٌ ثانيةٌ إلى وجوب أخْذِ الحيطة والحذر، بمستوىً أعلى، فيكون بذلك قد بلَّغَ الأبناء ضَعْفَ حيلتِه عَنْ قضاء الله تعالى وقدَرِه، مُمَهِّداً لإعلانِ التسليمِ والتوكُّل.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عِنْدَ قوة المعنى الذي يَحْمِلُه قولُه: **﴿إن الحُكْمُ إلا لله﴾**، وهذا أصلٌ منْ أُصولِ الدين، وجَبَ علينا الوقوفُ عِنْدَه وتأمُّله وإعماله في كُلِّ شأنٍ من شؤونِ حياتِنا.

ففي ظاهرِ الحال، نتمَتَّعُ في تنقُّلِنا وتقلُّبِنا في ساحاتِ الدُّنيا ومدارِجها بالقُدْرةِ، والقُوّةِ، ووسائلِ القَهْرِ، وتذْليلِ المصاعِب: ويتَمَتَّعُ بعضُنا بأسبابِ القيادةِ والرياسةِ والسُلْطة، وأدواتِ التحكُّمِ بحركةِ مجموعاتٍ منَ الناس، ولقد يَدْفَعُ الغرورُ بعضَ هؤلاءِ القادة، للظَنّ بأنهم حقيقةً أصحابُ الأمرِ والنَّهْيِ المُطْلَق دُونَ حسِيبٍ أو رَقيب، فيسيؤن استعمالَ السُلْطَة، ويَدْفَعُهُم الغُرورُ إلى الكِبْر، ثُمّ عَمَى البَصَائر، فيَحْصُلُ نتيجةً لذلكَ الكثيرُ منَ الظُلْمِ والفَسادِ والإفْسَاد، ثم الإمعانُ في البطشِ والإفساد، وتُراقُ بذلك الكثيرُ منَ الدماء فيأتي قولَ يعقوبَ عليه السلامُ ليضَعَ الأُمورَ في نِصابِها، ويُوضِحَ الحقيقةَ الأبدِيَّةَ المُطْلَقة: إنِ الحُكْمُ إلا لله.

فإذا به يقولُ للظالم: ما أنتَ إلا شخْصٌ أخطأ التّقدير، وما تلك القُوةُ التي بَيْنَ يدَيْكَ إلا تمكينٌ مؤقّتٌ زائِل، مهْمَا طالَ فهو زائِل، ويَبْقَى الحُكْمُ الحقُ لله العزيز الجبّار.

ثم تدورُ الدوائرُ على الظّالِم، فيرينا فيه الله تعالى قُوَّتَه، وتَطْوِيه الدنيا، فيتعظ بعضُ الخَلْق، ولا يتّعِظُ البعضُ الآخر، فيَسْلُكُ سُلوكَه فيَلْقَى مصيرَه، وهكذا إلى أنْ تَبْلُغَ البشريةُ يومَ الدين.

اللطيفة الثالثة: في الحِكْمَةِ البالغةِ التي أطْلَقَها يعقوبُ عليه السلام، لتكونَ هي أيضاً مُعَلِّماً أساسياً على مَرّ التاريخ، يرشدنا إلى كيفية التعامل معَ قضاءِ الله تعالى الواقعِ على خَلْقِه، إذْ يقول: **﴿عليه توكّلْتُ وعليه فلْيتوكّلِ المتوكّلون﴾**.

فهو يَتبرَّأُ مِنْ حَوْلِه وقُوَّتِه، ومِنْ خِبرةِ السنين الطّويلة، ومِنْ عِلْمِه الواسعِ الذي أعْطَاهُ الله تعالى، ومِنْ حِرْصِهِ ومَحَبَّتِه لأولادِه، ومِنْ حُزْنِه على فَقْدِ أولادِه، ومِنْ مكانتِه في قَوْمِه وعشيرته، ومن سُلْطَتِه الأبويّة على أبنائه، يتبرأُ من كُلِّ ذلك، ويوكلُ أمْرَهُ إلى الله تعالى، مُعَلِّماً أبناءَهُ وجوبَ التمثُّلِ به، فيتوكَّلُونَ على الله تعالى في حِلِّهِمْ وترْحَالِهم، في فِعْلِهم وقصْدِهم، ويُعَلِمُنا نحن أيضاً

وجوبَ التوكُّلِ الكامِلِ المُطْلَقِ على الله تعالى، فيصِلُنا التعميمُ بقولِه: **﴿وعليه فلْيتوكّلِ المُتوكّلون﴾**.

ومن هذه العبارة، أرى انطلاق أعظم فَرْعٍ مِنْ فُروعِ علاجِ المشاكِلِ النفسيةِ التي تُصيبُ الناس، وكَمْ تكاثَرتْ هذه المشاكلُ النفسيةُ في أيامِنا الحاضرة، والغالبيةُ العُظْمَى منها تَعودُ لعدمِ فَهْمِ وتطبيقِ الناسِ لمفهومِ التوكُّلِ على الله تعالى. فلو أحسنَ الناسُ التوكُّلَ، لزَالَتْ عنهُمْ هذه الأمراض، ولعاشُوا بهناء طُمأنينَةِ حِمَى الله تعالى، الذي لا يَنْسَى عِبادَه، ولا تأخُذُه سنةٌ ولا نوم.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب اتقاء الحسد وأعين الناس، وخصوصاً في الأبناء، وتبعاً فيما أعطى الله تعالى من رزق. فليس لنا أن نتباهى بعرض ما وهبنا الله تعالى على أعين الناس، وخصوصاً الحاسدين منهم، لأن العين حق، والأذى منها حاصل.

٢ - للدلالة على وجوب التوكل على الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة من أمور دنيانا، وهذا أمر رباني إلينا، ساقه القرآن الكريم على لسان يعقوب عليه السلام، ليكون إحدى القواعد الأساسية التي توجه تحركنا في حياتنا، ولقد جاءت العبارة بالنص العام بقوله: أن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٣]

تُتَابعُ معَنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، قِصةَ إخوةِ يوسفَ عليه السلام، في محاولتِهم الثانيةِ للحصولِ على المؤَنِ والغِذاء، وقد استطاعُوا تلبية مَطْلَبِ العزيزِ، بإحضارِ أخيهِم الأصغرِ معَهم، فلْنتأمّلْ ما تَحمِلُه لنا هذه الآيةُ منْ جميلِ اللطائف.

يقولُ الله تعالى: ﴿**ولمّا دَخَلُوا من حيثُ أمرَهم أبوهم ما كان يُغْنِي عنهُم منَ الله مِن شيء**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لحظنا لهذا الانتقالِ السريعِ للمشهد، دُون الحاجةِ إلى شرحٍ وتفصِيل. إذْ إنَّ المستمعَ اعتادَ منذُ بدايةِ السورة، على المُشاركةِ الذِهنيةِ معَ السرد، في تكوينِ صُوَرِ المشاهدِ المُتَعَاقِبَة، ورَبْطِها فيما بينها، وملءِ الفتراتِ الزمنيةِ غيرِ المذكورةِ في سياق السَرْد.

فلقد كانوا في الآيةِ السابقة، على بعدِ آلاف الأميال في حضرةِ أبيهم، يتلقَّوْنَ الإرشاداتِ والأوامر. وما بينَ الآيةِ السابقةِ والآيةِ الحالية، وقتٌ وجُهد، وانتقالٌ وتخطيط، وتوافقٌ وتنفيذ.

اللطيفة الثانية: في وُقوفِنا عنْدَ الحالِ النفسيةِ للإخوة في هذه المرحلةِ منَ القِصة، وهي تتسِمُ بالهدوء، والانصياعِ والالتزامِ بتوجيهاتِ أبيهم، دُونَما اجتهادٍ أو مناقشة.

فلقد عَلِمْنَا أنهم أصحابُ رأْيٍ واجتهاد، ولقد أعْملوا رأيهم في السابِق فيما يُخالِفُ إرادَة أبيهم، وأبعَدُوا أخاهم يوسفَ عَنْ فِكْرٍ وتصْميم.

أمَّا هنا، فنَلْحَظُ هدوءَ التصرفِ منْ هدوءِ الآية، في سَرْدِها لواقعِ حالِهم: ﴿**ولمّا دَخَلُوا مِنْ حيثُ أمَرَهُمْ أبوهم**﴾.

اللطيفة الثالثة: لُغوية، في وقُوفِنا عندَ قولِ الله تعالى: **﴿ما كانَ يُغنِي عَنهُمْ منَ الله مِنْ شيء﴾** وهي تُظْهِرُ لنا فَرادَة اللغةِ العربية، في الجمعِ بينَ الماضي والمستقبل، وذلك لبيانِ عَدمِ ترتبِ الغرضِ المقصودِ على التدبيرِ المعهود، معَ كونِه مَرْجُوَّ الوجود.

وتفسيرُه: أنّ يعقوبَ عليه السلام، أخَذَ كافة الاحتياطات اللازمة، للعملِ على عودةِ أبنائِه جميعاً. وحينَ عَمِلُوا بهذه الاحتياطات، لم تحْصُلْ سلامَةُ العودة، عَلى ما سنَرَى في لاحقِ الآيات.

اللطيفة الرابعة: في تَأمُّلِنا لاستباقِ الإعلام تلْميحاً لا تصريحاً، في جَماليةِ قصصيّةٍ عالِيةِ المستوى، بأنّ شيئاً ما، سيشُوبُ مُهِمَّة الأبناء، مما يَحْمِلُ المُتَتبّع لسياقِ القِصة، على تحَسُّبِ حُصولِ حَدَثٍ ما، يَضَعُ له في زاوِيةِ ذِهنِه مكاناً، يَدْفَعُه إلى ترقُّبِ الأحداث، مِمّا يُبْقِيهِ على حالٍ منَ الانشداد.

اللطيفة الخامسة: ما نَلْحَظُهُ منْ تكريمِ الله تعالى لنَبِيِّه يعقوبَ عليه السلام، أمامَ كُلِّ مَنْ قَرأَ القرآنَ على مرِّ الدُّهور. فيعقوبُ عليه السلامُ قال في الآيةِ السابقة: **﴿وما أُغْنِي عنْكُمْ منَ الله منْ شيء﴾**.

والله تعالى يقولُ في هذه الآية: **﴿ما كانَ يُغْنِي عنهم منَ الله منْ شيء﴾**. فلقد شاء الله تعالى أنْ يحْصُل تكْرَارٌ لفظيٌّ كاملٌ لما قالَ يعقوبُ عليه السلام. ولَسْتُ أرى تكريماً أغْلَى مِنْ هذا التكريم.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿إلاَّ حاجةً في نفسِ يعقوبَ قَضاها وإنه لذو عِلْمٍ لما علّمْنَاهُ ولكنّ أكْثر النّاسِ لا يعْلَمُون﴾**.

في هذا الشطرِ الأخيرِ منَ الآية، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنا لهذا الاستثناء الذي لا يُغيِّرُ شيئاً مِنْ قضاءِ الله

تعالى. ولقد أجازَهُ الله تعالى، بل أثنى عليه بقولِه: **﴿وإنّه لذُو عِلمٍ لِمَا علّمْنَاه﴾**.

وفي هذا تعليمٌ لنا وإفهام: أنَّ التسليمَ بالقضاءِ لا يُغْنِي عنِ الحِيطةِ والأخْذِ بالأسباب، وأنَّ وَعْيَنا الكاملَ لحتمِيّةِ حُصولِ ما قَضَى الله تعالى علينا، لا يَدْفَعُنا إلى التواكُلِ والتخاذُلِ والركونِ إلى الأرَض، وهذه حقيقةٌ غفَلَ عنها الكَثيرُ مِنَ الناس، وظَنُّوا أنَّ التسليمَ يَعْني التَّراخِيَ عنِ العَمل.

اللطيفة الثانية: في محاولةِ وقُوفِنا عِنْدَ بعضِ أوْجُهِ العِلْمِ التي لَحَظْنَاها في يعقوبَ عليه السلام، من خلالِ تأمُّلِنا لما سَلَفَ مِنَ الآيات.

فلقد أشارَ في أولِ السورةِ إلى احتمالِ ضَياعِ يوسفَ عليه السلامُ منه، مَعَ أنَّ ظَاهِرَ الحالِ في تلك اللَّحَظاتِ، أنه في الحِفْظِ والصَوْنِ، فكانَ أنْ حَصَلَ الفَقْد.

ثم إنه أشارَ في الآياتِ السابقةِ إلى احتمالِ فَقْدِ الابنِ الأَصغرِ أيضاً، مَعَ عدَمِ وجودِ دَلائلَ على ذلك، إذْ إنَّ واقعَ الحالِ يُشيرُ إلى صِدْقِ الأبناء، وظُروفُ نَقْصِ الغِذاء، تُساعدُ على تَقويةِ دلائلِ الحِفْظ.

ثم إنه شدَّدَ على وجوبِ الحِرصِ والوعي والتَّيَقُّظ، ورَسَم الخُطَطَ لِلحمايةِ والوِقاية، إلا أنه قالَ مُباشرةً بعدَ ذلك: **﴿وما أُغْنِي عَنكُم مِنَ الله مِن شيء﴾**.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عِنْدَ قولِ الله تعالى: **﴿ولكنَّ أكْثَر النّاسِ لا يَعْلَمون﴾** ونَرَى فِيها توجيهاً وإرشاداً، ينبغي لنا أنْ نَعْتَمِدَهُ قاعدةً في حياتِنا اليومية:

فهو تعليمٌ لنا بوجوبِ إبقاءِ فُسحةٍ في حَيِّزِ اليقين، الذي نَحْصُلُ عليه، مهما بَلَغَ بِنا الاقْتِنَاعُ بِصَوَابِيتِه، لاحتمالِ ألا نكونَ قد أحَطْنَا بكاملِ الحقيقة، وأنَّ هناك إمكانيةَ وجودِ تفسيراتٍ أُخرى للأحداثِ ونكونَ حاضِرين لِتَقبُّلِها فيما لو غَيَّرَت

هذه الأحداثُ من النتائجِ المتوقَّعَةِ أوِ المرجُوّة وفي فَهْمِ هذه الحقيقة، تَقليلُ الكثيرِ منَ المشاكِلِ والمَشَاحَناتِ والتوترِ الحاصلِ بينَ الناس، في تَشَابُكِ مصالِحِهم فيما بينهم.

ومعلومٌ أنَّ الشيطانَ اللعين، يَلْعَبُ على أوتارِ هذه التَّغْشِيَة، وعَدَم وعَيِ هذه الحقيقة، ويستغِلُّها للإيقاعِ بينَ الناس، فحبَّذَا لو أَخَذْنَا بتوجيهِ القرآنِ الكريم.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن موجبات الحذر والحيطة يجب أن تؤخذ مع تمام التوكل على الله تعالى، وفي اتخاذها تطبيق لأمر الله تعالى، وهو يتمم حصول الأجر، وإن كانت لا تغني من الله من شيء، لأن قضاء الله تعالى واقع، لكن الأخذ بالأسباب واجب.

٢ - للدلالة على وجوب الطاعة للوالدين حتى وإن كان ظن الأبناء أن رأيهم أصوب من رأي والديهم، وذلك قربى إلى الله تعالى، إلا أن يحصل نقاش واقناع.

٣ - استعمال عبارة: حاجة في نفس يعقوب قضاها، للدلالة على أمر يريد فعله ولا يريد إعلام الآخرين به إلا تلميحاً، فالعبارة جميلة، وردها إلى أصلها في القرآن الكريم أجمل وآكد.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٤]

تنقُلنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، إلى مشهدٍ رائعٍ مِنْ مشاهدِ قصةِ يوسفَ عليه السلام، نجدُ فيها أنَّ يوسفَ عليه السلام، بدأ باستعادةِ أحبابِه، وها هي ذِي البدايةُ معَ وصولِ أَخيهِ الأصغر، تمهيداً لاجتماعِ شملِ العائلةِ بكاملها، على مَا سَنرى في لاحقِ الآيات.

نبدأ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة. يقول الله تعالى: **﴿ولمَّا دَخَلُوا على يوسفَ آوَى إليه أخاه﴾**.

في هذا الشطرِ مِنَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لجمالِ الأسلوبِ القرآنيِّ، في التدرُّجِ الهادىء في كلماتِ آياتِه، معَ ما تنقُلُه إلينا مِنْ أحداث، فنحن نَلْحَظُ هذا التَّكْرار المحبَّبِ لِعبارَة: **﴿ولمَّا دَخَلُوا﴾**: ففي الآية السابقة كانَ الافتتاح: **﴿ولمَّا دَخَلُوا من حيثُ أمَرَهُم أبوهم﴾**[1].

وفي الآية الحالية: **﴿ولمّا دَخَلُوا على يوسف﴾**.

فإذا بنا نَلْحَظُ تَدَرُّجاً في الوصولِ إلى الهَدف: دخولٌ عامٌّ إلى المدينةِ في الآيةِ السابقة. ودخولٌ خاصٌّ إلى مقامِ يوسفَ عليه السلامُ في هذه الآية.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ المعاني التي تَحْمِلُها عبارة: **﴿آوَى إليه أخاه﴾** وهو تصويرٌ عامرٌ بالمشاعرِ والأحاسيس، يحمل معانيَ الضَمِّ والحُنُوِّ والرِّقّةِ والرحمة، والمحبةِ العميقةِ الخالصة، وكأنَّ الآيةَ تُوضِحُ لنا، في إيجازٍ مُذهِش، مدى عُمقِ حُبِّ يوسفَ عليه السلامُ لأخيهِ الأَصغر، إذْ نَفْهَمُ من كلمةِ: **﴿آوى إليه أخاه﴾** التقريبَ والحِمايَة، ويتبادَرُ إلى ذِهْنِنا صورَةُ الطائرِ الذي يَضُمُّ تَحتَ جناحَيْهِ صِغَارَه، حُنُوّاً وحِماية، حُبّاً ورِعَاية، ذَوداً وكِفاية.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٦٨]

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لكلمة ﴿**أخاه**﴾ في قولِه: ﴿**آوى إليه أخاه**﴾. ونتساءَل: أليسَ بقيةُ الإخوةِ إخوتَه؟ ولماذا فَهِمْنَا مباشرةً أنَّ المعنِيَّ هو الأخُ الأصغر؟

الجوابُ هو: أنَّ القرآنَ الكريم، يمْتَازُ بخصوصيةِ التّخَاطُبِ المباشِر، مَعَ الحِس الإيمانيِّ الداخليّ، القابع في كلِّ واحدٍ منَّا، فهو يسْمُو في أغلبِ سُورِهِ وآياتِه عن ذِكْرِ أسماءِ غيرِ الأنبياء، إلا فِيما نَدَر، وهذه إحدى خصائِصِ إعجازِه، إلا أنه لا يتْرُكُنَا أبداً في حَيْرَةٍ مِنْ أمْرِنا، ويُعْطِينا الإشاراتِ اللطيفَة في سياقِ تفاعُلِنا مَعَ قَصَصِه.

فبالعودةِ إلى الآيةِ الثامنةِ في بِداياتِ السورة، نَسْمَعُ الإخوةَ يقولون: ﴿**إذْ قالوا ليُوسُفُ وأخُوه أحبُّ إلى أبينا مِنّا**﴾. وبذلك فلَقَدْ تَمَّ فضْلُه منذُ بدايةِ السُّورةِ عَنهم، وأصبحَ يُشارُ إليه على مدارِ السُّورةِ بهذِه التّسْمِية: أخو يُوسف، فلا يَقَعُ بذلك لَبْسٌ أوْ إبْهام.

ثم تتابعُ الآيةُ الكريمةُ: ﴿**قال إني أنا أخوكَ فلا تَبتئس بما كانُوا يعملون**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنَا لصيغةِ التّوْكيدِ المُضَاعَفِ التي استَعْمَلَها يوسفُ عليه السلام، في إفْصَاحِهِ عن نفسِه لأخِيه، إذْ قال: ﴿**إني أنا أخوك**﴾ وهذا التوكيدُ يَتناسَبُ مَعَ خُطورِه الإعلامِ والتعريفِ الذي يَحْصُل، لصعوبةِ تصديقِ ذلك، مِنْ قِبَلِ الأخِ الأصغر.

وكأنّهُ يقول: إني أُؤَكِّدُ لكَ وإعْلَمُكَ بأنّي أخوك.

اللطيفة الثانية: في وُقوفِنا عندَ مَرَاحِلِ التحضيرِ النفسيِّ التي بدَأَهَا يوسفُ عليه السلام، منذُ لحظةِ وُصولِ الإخوة، ومَعَهُمُ الأخُ الأصغر، استعداداً لخُطَّةِ

جديدةٍ يَحتاجُ فيها لمساعدةِ أخيه، وذلك على أربعِ مراحل:

المرحلةُ الأولى: بالإيواء في قوله تعالى: **﴿آوى إليه أخاه﴾**.

المرحلة الثانيةُ: بالتعريفِ إذْ قال: **﴿إني أنا أخوك﴾**.

المرحلة الثالثةُ: بالضّمِّ إلى ذاتِ الموقعِ والجِهة. إذْ قال: **﴿فلا تبتَئِسْ بما كانوا يَعْملون﴾**.

وستاتي المرحلةُ الرابعة: بالمشاركةِ العَمَلِيّةِ في تنفيذِ الخُطةِ على ما سنَرى في لاحق الآيات.

ونَلْحَظُ في قولِه: **﴿فلا تَبْتَئِسْ بما كانُوا يَعْمَلُون﴾** مواساةً وتذكيراً في آنٍ واحد:

فلقد أساءَ الإخوةُ في السّابِقِ إلى يوسفَ عليه السلام، ورأَيْنا كيفَ أنَّهم ألْقَوْهُ في الجُبّ، وأبعدُوه عنْ أبيه.

ولقد أساؤُوا تبَعاً إلى أخيهِ الأصغر، حين قالُوا: **﴿ليُوسُف وأخُوهُ أحبُّ إلى أبينا مِنّا﴾**(١).

ولقد ترَكَتْ هذه الإساءةُ أبْلَغَ الأثَرِ في حياةِ كُلٍّ مِنْهُما، وفي حياةِ أبيهم، الذي عاشَ حُزناً عمِيقاً على فِراقِ يوسفَ عليه السلام.

فإذا بيوسفَ بعدَ هذا التّذْكِير، يَدْعُو أخَاهُ للصَفحِ والعَفْوِ عَنْ بقِيَّةِ الإخوة، تَعْليماً لنا بوجوبِ العَفْوِ عِنْدَ المِقْدِرَة.

وجميلٌ مِنَّا أنْ نَقِفَ عِنْدَ الحالِ النَّفْسِيَّةِ للأخِ الأصغرِ في هذه اللّحَظات، وهو يعيشُ كشْفَ حقيقةٍ مُذْهِلة، لم يَكُنْ يتَصَوَّرُ أبَداً حُصولَها:

فنحنُ منذُ بدايةِ القِصة، نَراهُ طَائِعاً جِداً، لما يُمْلِيهِ عليهِ أبوه معَ أنه رجلٌ راشِدٌ يُمْكِنُه أنْ يُدْلِيَ برأْيِه.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٨]

ثم إنَّه رَحَلَ إلى مِصْر، وقد أَخَذُوا القرارَ نِيابةً عنه، ولم نَسمعْ له رأياً في كُلِّ ما جَرَى مِنْ حوارٍ بينَ يعقوبَ والأبناء، تدليلاً على قُوَّةِ طاعتِه لأبيه واحترامِه له.

ثم إنّه وصَلَ إلى مِصْر برفقةِ إخوتِه، مَعَ مُلاحظةٍ دقيقةٍ وهامّةٍ جداً هي المرةُ الأولى التي يَزُورُ فيها مِصْر، بينما هي ليستِ الأولى لإخوتِه، مِمَّا يُعْطِي شعوراً مُضَاعَفاً بالغُربَةِ والعُزْلة، وكُلُّنا يَخْتَبِرُ هذا الشعور، حينَ نكونُ برفقةِ مَنْ سَبَقَنا لزِيارةِ مكانٍ مجهولٍ لدينا.

ثم إنَّ عزيزَ مصرَ آواهُ إليه، وفي هذا تصاعُدُ الشعورِ بالدهشةِ والاستغراب، ممّا يَدْفَعُ النفسَ إلى التساؤلِ في لَحظاتٍ سريعة: ماذَا يُريدُ مني عزيزُ مِصر، حتى يَرْفَعَني إلى هذا المَقامِ دُفْعَةً واحِدةً؟

ثم إنه عَرَّفَهُ بنفسِه: ﴿**إنّي أنا أخوك**﴾، فإذا بالقَلْبِ يَنْشَرِحُ بعدَ انْقِباض، وتَتحوَّلُ الدَّهْشَةُ إلى فرحٍ وإيناس.

ثم بَعْدَ الانشراحِ الهدوء، والتذاكُرُ معَ يوسفَ عليه السلامَ ما عانياه معاً مِنْ قسْوةِ الإخوةِ عليهما.

ثم الصفحُ والعَفْوُ والسَّمَاح، بقولِ يوسفَ عليه السلام: ﴿**فلا تبتئس بما كانوا يعملون**﴾.

ثم متابعةُ يوسفَ عليه السلام، في إخْبَارِه عمّا اعتزَمَهُ مِنْ خُطَّةٍ سنَرى تفاصِيلَها في لاحقِ الآيات.

ثم الموافقةُ على مُشاركةِ يوسفَ خُطَّته، وإنْ كانَ فيها اتِّهامٌ ظاهِرٌ له، بأَخْذِ ما ليسَ له.

قليلٌ منَ الناسِ مَنْ يحتملُ هذا التقلب السريعَ في المشاعِرِ والانفعالات، وتلكَ القلوبُ يُقَلِّبُها الله تعالى كيفَ يشاء.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب الصفح عند المقدرة، حتى وإن كان الظلم أو القسوة متمادية مع الزمن، وغالباً ما يكون في هذا الصفح خير عميم يصل إلى من ظلم فتشرق نفسه من آثار العفو، وتصفو وتعود إلى فطرتها وخيريتها.

٢ - للدلالة على أن النفس البشرية لا تثبت على حال واحدة، فهي متقلبة متبدلة، تتفاعل مع محيطها، فتنقبض وتنبسط، وتبتهج وتحزن وتتأثر بالتوجيه الخارجي.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٥]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، إلى فصلٍ جديدٍ من فصولِ قِصَّةِ يوسف عليه السلام، وقد بدأ مَعَها تنفيذَ خُطّتِه الجديدة، بموافقةِ ومُشاركةِ أخيه الأصغر، فلنتأمَّلْ معاً هذه الآيةَ الزَّاخِرة بالمعاني والمواقف، ولنتذوَّق جمالَ القرآنِ الكريم، في سَرْدِ القَصَص.

يقولُ الله تعالى: **﴿فلمّا جَهَّزهم بجهازِهم جَعَل السقايَةَ في رَحْلِ أخيه﴾**.

في هذا الشَّطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ قولِه تعالى: **﴿فلمَّا جَهَّزَهُم بجهازهم﴾**، ولقد سمِعْناه يقولُ عندَ مفْصِلٍ أساسيٍ سابقٍ منَ القِصَّة؛ في الآيةِ التاسعةِ والخمسين: **﴿ولمّا جَهَّزَهُمْ بِجهازِهم﴾** حين طالبَهم بإحضار الأخِ الأصغرِ معهم.

ونَرى في هذا التَّكرارِ لبَدْءِ المشهد، جماليةً قَصَصِيَّةً نادِرة، تُهَيِّئنا للدخول نفسِيّاً في أحداثِ المشهدِ اللاحق، معَ كُلِّ ما يَحْمِلُه المشهدُ مِنْ عُقدٍ وتأزُّم، وشوقٍ إلى رُؤيةِ الحَلّ.

اللطيفة الثانية: في مُلاحَظتِنا لدقّة تصرُّفِ يوسَف عليه السلام، معَ حركةِ الأحْداث: فنحن نَلْحَظُ أنّ الله تعالى يقول: أن يوسف عليه السلام جعَلَ السِقاية في رَحْلِ أخيه. أي بنفسِه: لقد قامَ بوضعِ وعاءِ الكيلِ داخلَ رَحْلِ أخيه، ولم يُكَلِّفْ أحداً آخَرَ بِوضعِه فيه، في حين أننا نقرأُ في الآيةِ الثانيةِ والستينَ منَ السورة، وقدْ مَرَّتْ بنا: ﴿**وقالَ لفِتْيَانه اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُم في رحالِهم**﴾، هناكَ أمَر فِتيانَه بالتنفيذ، أمّا هُنا، فنظراً لأهميةِ هذه الخَطْوة، قامَ بها بِنَفْسِه لضمانِ نجاحِ الخُطّة، وهَذا معلمٌ آخرُ مِنْ مَعالِم شخصيةِ يوسفَ عليه السلام: الإتقانُ في العمل..

اللطيفة الثالثة: في وقُوفِنا عندَ محورِ الحَدثِ في هذا المَشْهَد. عنيتُ بهِ السِقايَة. ولقد أوْضَحَ لنَا السادَةُ المفَسِّرون أنه عبارةٌ عَنْ وِعاءٍ أو إناءٍ خاصٍ بالمَلِك. ستُسَمِّيه الآياتُ اللاحقة: صُواعَ المَلِك، يَسْتَعْمِلُه يوسفُ عليه السلامُ في كَيْلِ المُؤَن، وهو نفيسٌ بَدَاهَةً، ولقد اختارَهُ يوسفُ عليه السلامُ، لأنه يحتاجُ إلى شيءٍ يتمتّعُ بالمواصفاتِ التالية:

أنْ يكونَ غاليَ الثمن، يَرْغَبُ الناسُ باقتنائِه.

وأنْ يكونَ صغيرَ الحجمَ يسْهُلُ إخفاؤُه.

وأنْ يكونَ قابلاً للوصولِ إليه.

وأن يكونَ مِمّا يُمْكِنُ استعمَالُه أو بيعه لقيمتِه أو لما فيه مِنْ موادَّ قيِّمَة.

فاجتَمَعَتْ كلُّ هذه المواصفاتِ في صُوَاعِ المِلك، فاخْتَارَهُ يوسُف عليه السلامُ أداةَ تنفيذِ الخُطّة.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿ثُمّ أَذَّنَ مؤذنٌ أيتُها العير إنكم لسارِقون﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأمُّلِنا لِتوقيتِ يوسفَ عليه السلام، لبدءِ التحرُّكِ لتأزِيم المشهد، معَ ما يتَضَمَّنُ ذلكَ مِنْ إفصاحٍ عَنْ حُنكَةٍ وحُسْنِ تصرُّف:

فلقد جَهَّزَهُم بجهازِهم، ثم وضَعَ السِقايَة خِفيةً عنهم، في رَحْلِ أخيهِ الأصغر، معَ علمِ الأخِ الأصغر بذلك.

ثم وَدَّعَهُمْ وتَرَكَهُمْ يتحرَّكُون، بحيثُ صارُوا في حُكْمِ المسافرين.

أي ثَبَتَ عليهم حُصُولُ اليقينِ بالمغادرة، وبالتالي ثَبَتَ تضَمُّنُ رِحالِهِم لكلِ ما أخذوا مَعَهم، لحصولِ الانفصالِ الماديّ بالانتقال.

ولقد صبَر يوسفُ عليه السلام، وانتَظَر بَدْءَ تَحرُّكِهم حتى يُرْسِلَ الدَّاعِيَ بالإعلانِ عَنْ حُصولِ السَّرقة.

ولو أنه عاجَلَهُمْ بالاتِّهامِ وَهُمْ لا يزالُونَ في أماكِنِهم، لكانَ أمْكَنَ لهم دَفْعُ الجُرْمِ عَنْ أنفُسِهم بظَنِّ حُصولِ الخطأ في وُقوعِه بينَ أوعيةِ الرّحْل.

أمّا أنَّ الرِحالَ قد حُزِمَتْ وانْطَلَقَتِ العِير، فهذا دليلٌ ثابتٌ على سَبْقِ الإصرار والتعمُّد.

اللطيفة الثانية: في مُلاحَظتِنا لعُلوِّ ذَكاءِ يوسفَ عليه السلام، وحُسْنِ إدارتِه لخُطتِه. إذْ نقرأ: ﴿**وأَذَّنَ مُؤَذِّن**﴾ فلقد أَوْكَلَ أمرَ اكتشافِ مكانِ وجودِ السِقاية، إلى بعض أفرادِ حاشيته، بخِلافِ ما فَعَل حين وضَعَ السقايَةَ بنفْسِه في رَحْلِ أخيه. وسَيَنْهَجُ هذا المنهجَ في بقيةِ أحداثِ هذا المشهد، تعميقاً لثبوتِ حالِ المُخالفةِ في حقِّ الإخوة.

اللطيفة الثالثة: أيضاً عِنْدَ قولِ الله تعالى: **﴿وأذَّن مُؤَذِّن﴾**، وذلك لجعلِ الحَدَثِ معلوماً مِنْ جَميعِ الحاضِرين، مما يُوقِعُ الإخوةَ في موقفٍ علني لا يُحسدُونَ عليه، ويُضْعِفُ مَوْقِفَهم إلى أدنى حَدّ، ونحن نعرفُ الفَرْقَ بينَ كشْفِ الفِعلِ السيء في موقفٍ فَرْدِيّ، وكشْفِهِ على مسْمَعٍ ومرأىً مِنَ الناس، ويَحْضُرني هنا حالُ الناسِ يومَ الحشر، يَومَ العرضِ العظيم، حين تقِفُ البشريةُ كافةً، فتسمعُ وترَى ذُنوبَ كلِّ فردٍ منها، يَعْتَرِفُ بها بنفسِه على مسمعٍ ومرأىً منهم جميعاً، فأيُّ موقفٍ أصْعَبُ مِنْ هذا الموقف؟

اللطيفة الرابعة: في الجماليةِ اللُّغويّةِ في قولِ الله تعالى: **﴿وأذَّنَ مؤذِّنٌ﴾** ولم يقُل: ونادى مُنادٍ، إذْ إنَّ الوقعَ اللُّغَوِيّ في الأُذُنِ أجمل. والصورةَ التي تَحمِلُها أرْقَى وأصْفى.

اللطيفة الخامسة: في وقوفنا عندَ قولِ المؤذِّن: **﴿أيتُها العِير﴾**.

وفي هذا تعميمٌ لا تخْصِيص، وهذا التعميمُ يتوافَقُ معَ أهدافِ خُطةِ يوسفَ عليه السلام، من ناحيتينِ اثنتين:

فمِنْ ناحيةٍ أوْلى، يدْفَعُ كلَّ واحدٍ مِنَ الإخوةِ إلى الشعورِ التضامنيِّ معَ جميعِ القافلة، فيما سيَرِدُ إليها مِنْ إعلامٍ أوِ اتهام.

ومن ناحيةٍ ثانية، فيه التعميةُ والتمويه، وإبعادُ الشُبْهَةِ عَنْ حُصولِ التوافُقِ بينَ يوسفَ عليه السلام، وأخيهِ الأصغر.

اللطيفة السادسة: في هذا الاتهامِ المباشِر، الذي ألقاهُ المُؤَذِّنُ على كامِلِ القافلة، بقولِه صَراحةً: **﴿إنكم لسارِقون﴾**.

فهو لم يَطْلُبْ مِنْهُم التمهُّل أو التوقُّف.

وهو لم يَطْرَحْ عليهم سؤالاً أو استفساراً.

وهو لم يَقُلْ لهم: إن خطأً قد يكونُ وقَعَ عندَ حَزْمِ الأمتعة. بل واجَهَهُمْ مباشرةً باتهامٍ خطير، وقَعَ عليهم وقْعاً صاعِقاً. إنما أرادَ يوسفُ عليه السلام، ليُحْدِثَ فيهم ما يُسمَّى بصَدمةِ الرفض، إذْ تتصاعَدُ لديهم فجأةً، وبصورةٍ قويةٍ وكُلِّية، حالةُ الإنكارِ الكاملِ للتُّهْمَة، ممّا سيَدْفَعُهم لاحقاً لقَبولِ الحلولِ الجَذْرِيَّةِ القاسيةِ، فيما لو صَحّتِ التهمة، في تحدٍّ يَنْبُعُ من قوةِ يَقِينِهم بالبراءة.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن إحكام خطة ما بلحظ كافة تفاصيلها، تؤدي نتائجها المرجوة، شرط التدرج والتمهل في تنفيذها، وعدم التسرع أو تجاوز المراحل المعدة، والمقصود بهذا التوجيه، هي الخطط الخيرة التي تهدف إلى إصلاح ذات البين، أو فض النزاعات، أو تقريب وجهات النظر، والمؤسف أن أهل الشر والإفساد يقومون هم أيضاً بحبك الخطط والمكائد للإيقاع بين الناس، ويمكرون ويمكر الله، والحصيلة النهائية لعملهم، البوار والخسران المبين.

٢ - للدلالة على أن عنصر المفاجأة يستوجب الجرأة والسرعة في التنفيذ دون تردد أو إبطاء، فلقد تسارعت الأحداث فجأة في حق الأخوة مما أوقعهم في إرباك شديد، وهذا المبدأ إن حسن أعماله، يعطي أفضل الثمار، سواء في الحرب أو في السلم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٦]

نُتابع معاً أخي المؤمن، تأمُّلَ الحوارِ الذي جَرى بينَ إخوةِ يوسفَ عليه السلام، وقد سرَّهُم أنَّهم تمكَّنوا أخيراً مِنَ التجهُّزِ بالمؤنِ والغِذاء، وقد انْطَلَقُوا في سَيْرِهم إلى ديارِهم، وبينَ بعضِ حاشية يوسفَ عليه السلام، وقد عَلِمْنَا في الآيةِ السابقة، أنَّهم استوقفُوهُمْ واتَّهَمُوهُمْ بالسَّرِقة، وكان اتِّهاماً صريحاً علنِيّاً مُباشِراً، الأمر الذي لم يتوقَّعْهُ الإخوةُ إطلاقاً، فقد كانوا مُنْهَمِكينَ بسُرعةِ العودةِ إلى أبيهم في سعادة، لتحَقُّقِ الهدفِ المزْدَوِج: تحصيلُ الطعام، والحفاظُ على الأخِ الأصغرِ كما وعَدُوا أباهم، فإذا بهذا النداء البعيدِ يقْلِبُ الأمورَ رأْساً على عقِب. فلنتأمَّلِ الآيتين:

يقولُ الله تعالى: ﴿قالوا وأقبَلُوا عليهم ماذا تفقِدون﴾

في هذه الآيةِ لطائفُ عِدة:

اللطيفة الأولى: في وقُوفِنا عندَ الصياغةِ الأدبية للآية. ونحن نعرفُ أنَّ عبارةَ: ﴿وأقبلُوا عليهم﴾ هي جملةٌ اعتراضِيَّة، وكانَ يُمكِنُ أنْ ترِدَ على ما اعْتَدْنَا على سماعِه وقولِه مِنْ بسيطِ العبارات: فأقبلوا عليهم وقالوا ماذا تفقدون.

إلا أننا، وبالعودةِ إلى سياقِ الحوارِ الذي يَبْدأُ معَ هذه الآية، ويمتدُّ إلى أربعِ آياتٍ مُتوالِيات، يكونُ افتتاحَ الآيات الثلاثِ التالية حكماً بعبارة: ﴿قالوا﴾ فانسِجاماً معَ تَناسُقِ التعبيرِ القرآني، جاءَ افتتاحِ الآيةِ الأُولى بعبارةِ ﴿قالوا﴾، معَ إعطاءِ الآيةِ قوةً جماليةً أعلى: ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفْقِدُون﴾

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عِندَ مغْزَى إيرادِ الله تعالى لعبارة: ﴿وأقبلُوا عليهم﴾، والتي كما ذَكَرْنَا، جاءَتِ اعتراضيَّة في مَعْرِض السَّرْد، وهي تُشيرُ إلى أنَّ القافلة، كانت قدْ أدبرتْ عَنْ مِصْر، فإذا بهم لمَّا سَمِعُوا نداءَ المؤَذِّن، عَادُوا أدْرَاجهم.

لقد حملتِ الآيةُ الكريمةُ إشارتين اثنتين، على صدقِ الإخوةِ في تصرُّفهم حيالَ هذه المسألة، التي أتَتْ إليهم، ولم يَحْسُبوا لها حِساباً: أَنْ تقَع عليهم تُهمةُ السّرِقَة..

الإشارةُ الأُولى، حينَ عَادُوا أدراجَهم.

والإشارةُ الثانية، حينَ قالوا صادِقين: ﴿ماذَا تفقِدون﴾

ونحن إذْ نقرأ هذه الآياتِ الكريمة، نعْرِفُ حقيقةَ المسألة، ونعرفُ أنَّ الإخوةَ لا يَدَ لهمْ إطلاقاً في السرِقة، إلا أننا نتأمَّلُ موْقِفَهم منَ الاتهامِ الواقعِ عليهم. وهذه الظروفُ تتكرّرُ كثيراً في الحياةِ الدُّنيا بينَ الناس. ويُصَوِّرُ لنا هذا المشهدُ مِنَ السورة، حالَ تفاعُلِ البشَرِ مَعَ الأحداث. وما إخوةُ يوسفَ إلا نموذجٌ للنّفْسِ البشرية، تَتَكرَّرُ على مَرِّ الأيامِ بألوانٍ وأساليبَ مُختلِفة.

اللطيفة الثالثة: في لَحْظِنا للأدبِ الذي تعامَلَ به الإخوةُ معَ الاتهامِ الموجَّهِ إليهم. فلقد قِيلَ لهم في الآيةِ السابقة: ﴿**أيتُها العِيرُ إنّكُم لسَارِقون**﴾ وقُلْنا إنه اتهامٌ خطيرٌ لا يقْبَلُه الإنسانُ بسهولة.

فكانَ جوابُهم على أعلى درجةٍ منَ الأدبِ والانضباط، إذْ قالوا: ﴿**ماذا تفقِدون**﴾

وتلكَ آثارُ التربيةِ الصالحةِ التي ربّاهُمْ عليها يعقوبُ عليه السلام.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ أفرادِ الحاشية: ﴿**قالوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الملِك ولِمَنْ جاءَ به حِمْلُ بعير وأنا بِهِ زعيم**﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لحظِنا لهدوء الوتيرة، في أُسلوبِ الكلامِ المستعْمَلِ مِنْ قِبَلِ الحَاشِيَة، وجاءَ هذا الهدوءُ استجابةً جيدةً ولطيفة، لِتساؤُلِ الإخوةِ الهادىءِ

والرَّصين، وهذا سِرٌّ مِنْ أسرارِ التّخاطُبِ والحوار، حَبَّذَا لو استَخْلَصْنَا منه العِبَر: فإنَّ رَفْعَ وتيرةِ الحوارِ بينَ الطرفين، يُؤدِّي إلى عشَى الأبصار، وعَمَى البصائر، وغالباً ما تكونُ فُرصة الشيطان، للإيقاعِ بينَ المُتحاورِين، في الشَحنِ التّصاعُدِيِّ لوتيرةِ الحوار.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ التدرُّجِ المُسْتَحْسَنِ الذي اعتَمَدَهُ كبيرُ المتحدِّثين، في إقناعِ القافلة بِرَدِّ المفقود، ونراهُ في هذه الآيةِ على ثلاثِ مراحل:

المرحلةُ الأُولى، بالإعلامِ عَنْ طبيعةِ الشيءُ المفقود.

المرحلةُ الثانية، بالوعدِ بجائزةٍ لمن يُحْضِرُ الشيءَ المفقود.

المرحلةُ الثالثة، بإعطاءِ الضَمانةِ الشخصية، بتأمينِ الجائزة.

وهذا هو أسلوبُ الترغيبِ الذي يُقْنِعُ الحائزَ للمفقودِ أن يُعيدَه، أو يُقْنِعُ مَنْ يَعْرِفُ مكانَ وجودِه للدِّلالةِ عليه.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لنوعِ الجائزة: ﴿**حِمْلُ بعير**﴾، ولا عَجَب، فهذا أثْمَنُ ما يَطْلُبُه النّاسُ في هذا الوقتِ مِنَ القَحْطِ والجفَاف، وهي جائزةٌ مغريةٌ جداً، لا يقْدِرُ على الصمودِ أمامَها الحائز.

ونَفْهَمُ مِنْ هذا، أنَّ قيمةَ الصُّواعِ عاليةٌ جداً. ولعلّهُ كانَ مُرَصّعاً بالجواهر، أو أنه مصْنُوعٌ مِنَ المعادنِ الثمينة.

ثم تَنْتَهِي الآيةُ بصيغةِ المفردِ بقولِه: ﴿**وأنا بهِ زَعيم**﴾ وفي هذا انتقالٌ مِنَ العامِّ إلى الخَاصّ، لأنَّ التعهُّدَ والضّمانَ لا يُمْكِنُ أنْ يصْدُرَ عَنْ مَجموعة، بل يَجبُ أَنْ يَبْلُغَ الإقناعُ بالتنفيذِ مَداه، فتعهَّدَ كبيرُ الحَاشِيَةِ بالتنفيذِ على مسؤوليته.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على مشروعية الحوافز ذات القيمة لحمل الناس على بذل مجهود أكبر لإتقان العمل وفي هذا مخاطبة لعوامل اليقظة والتنبيه في الإذهان، وهذا صنو التنافس المشروع الذي يؤدي إلى تحسين الإنتاج ومضاعفة الجودة.

٢ - للدلالة على أن ضمانة الإيفاء حال الوعد واجبة، وهنا أيضاً تظهر أهمية طمأنة الحال النفسية للموعود لكي يكون أداؤه على أحسن وجه.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٧]

نُتابعُ معاً أخي المؤمن، في تأمُّلِنا اليومَ لهذِه الآيات، بقيةَ الحوارِ الذي جرَى بينَ حاشيةِ يوسفَ عليه السلام، وقد أرسَلَهُمْ لاستردادِ صُواعِ الملِك، وبينَ الإخوةِ في دَهْشَتِهم ونَفْيِهم للتُّهمةِ المُوجَّهةِ إليهم.

وكنَّا قد لَحَظْنا أنَّ الحوارَ بدأ بالترغيبِ بإعادةِ المفقودِ بالحُسْنَى، دونَ تفتيش، معَ وعدٍ بالمكافأة، فلمَّا كانَ جوابُ الإخوةِ الإنكار، تغيَّرتِ اللهجةُ على ما سنَرَى في الآيات، موضوعِ تأمُّلِنا.

يقولُ الله تعالى: **﴿قالوا تَالله لقد عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ في الأرضِ وما كُنّا سارِقين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ ابتداءِ كلامِ الإخوةِ في رَدِّهِم على الاتهام، بالقَسَمِ بالله تعالى، ﴿**قالُوا تاللهِ**﴾.

يقولُ النَحْوِيُّون: لا يُقْسَمُ بالتاءِ إلا في الله خاصّة؛ وفي القَسَمِ بها مَعْنَى التعجُّب.

إنهم يتعجبون ويُقْسِمُونَ بالله تعالى.

ولقد عَلِمْنَا مِنْ سالفِ الآيات، أنّ أهلَ مِصْر في ذلك الزمان، وإنْ كانُوا على الشِرْك، فَهُمْ يَعْرِفُون الله تعالى، ونَذْكُرُ قولَ النِسوةِ في المدينةِ أولَ السورة، حين رأَيْنَ يوسفَ عليه السلام، في بيتِ امرأةِ العزيز، في الآيةِ الحاديةِ والثلاثين: ﴿**قُلْنَ حاشَ لله ما هذا بشراً إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم**﴾[١].

ولذلك، فإنَّ قَسَمَهُمْ بالله تعالى، مفهومٌ لدى الحاشية، والهدفُ منه، إثباتُ صِفةِ الصِدْقِ على قَوْلِهم، وهو في الوقتِ عينِه، جوابٌ بالنفيِ والإنكار، مما يُفْهَمُ فيه رفضُ الإخوةِ لعرضِ الحاشيةِ بالحصولِ على الجائزة، تأكيداً على بَرَاءَتِهم.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لدقةِ العبارةِ القرآنية، في قولِ الإخوة: ﴿**لقد علِمْتُم**﴾ فَهُمْ بذلك يُشهدونَ الحاشيةَ على حصولِ سَبْقِ العِلْمِ لديهم، إرتكازاً إلى ما استجمعَ لديهم مِنْ تصرفِ الإخوة، خلالَ إقامتهم في مِصْر، ولا تتكوّنُ المعلومةُ إلا بتضافرِ عناصرِ التثبيت لها، مِنْ مواقف مُتَمَيِّزَة، وتَكرارِ التصرُّفِ الحسَن، وحُسْنِ التعاملِ والأدبِ والعفةِ والأمانة، حتى اشتُهِرُوا بها، فحُقَّ لهم أنْ يقولوا: ﴿**لقد عَلِمْتُم**﴾.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣١]

اللطيفة الثالثة: في العبارةِ التي ذَكَرَها الإخوةُ في دِفاعهم عنْ أنْفُسِهم إذْ قالُوا ابتداءً: ﴿**ما جِئْنَا لِنُفْسِدَ في الأرضِ**﴾.

والإفسادُ وِعاءٌ كبير، يَضُمُّ ما لا يَكَادُ يُحْصَى مِنَ الأعمالِ السيئة، ابتداءً مِنْ أذِيةِ الناسِ بالقَتْلِ والجَرْح، والتعدِّي على الحُرمات، وُصولاً إلى السَلْبِ والنَهْب، والسّرِقةِ والتخريب، ثم الإساءةِ إلى العقولِ والأذهان، وبثِ الأفكارِ الهدامَة، والإرهابِ الفِكْري، وترويعِ الناس، وسَلْبِ الأمْنِ والطُمأْنينة، ونشرِ أسبابِ الرذيلة، وهدمِ المجتمعات، والإساءةِ إلى ما خَلَقَ الله تعالى من حيوانٍ ونباتٍ وطبيعة، وما لم نَذْكُرْ أكْثَرُ بكثير.

لقد ذكرَ الإخوةُ أولاً، فِعلاً سيئاً واسعاً جداً، واستَهْجَنُوهُ ورَفَضُوه، ثم عادُوا إلى مسألةِ جزءٍ منه، فنَفَوْا عَنْ أنفسِهم تُهمةَ السرِقَة.

اللطيفة الرابعة: في لحظِنا لتوقيتِ نَفْيِ السرقةِ عَنْ أنفسِهم. لقد كانَتِ الكلمةُ الأُولى التي ذَكَرَها المؤذِّنُ في بَدء الحوار: ﴿**أيَّتُها العِيرُ إنكم لسَارِقُون**﴾ فما أجابوه مباشرةً، بل استفْهَمُوا عَنِ التهمة، وتركُوا المؤَذِّنَ يشْرَحُ لهم تفاصيلَ الحَدَث، وتركُوه يَعْرِضُ عَرْضَه، ثم أجابوا بأنَّهم مُسالِمون، لا يَبْغُونَ الفَسادَ في الأرض، إلى أنْ أجابوه في النهاية: وما كنَّا سارِقين.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿قالُوا فما جَزاؤه إنْ كُنتم كاذِبين؟﴾

في هذه الآية لطيفتانِ اثنتان:

الأُولى: أننا نقفُ مُنْدَهِشينَ أمامَ سؤالِ الحاشية: فهم يتحدَّثُونَ نيابةً عنْ عزيزِ مصر، والموقفُ متوترٌ جداً: صُواعُ الملِكِ مَفْقود، وإخوةُ يوسفَ مُتَّهَمُون، ورجالُ البحثِ في موقعِ قُوَّة، قوةِ السُلطةِ المُسْتَمدَّةِ مِنَ الحاكِم، ويُمْكِنُهم إملاءُ شروطِهم في العِقاب، ويُمْكِنُهم الاحتكامُ إلى القواعدِ والقوانينِ المرعِيّةِ الإجراءِ لديهم، وهذا مَنْطِقيٌّ في عُرْفِ العدالةِ والقانون.

فإذا بهم يسألون المُتهَمينَ عن نوعِ العِقابِ الذي سيُعَاقَبُونَ بهِ فيما لو ثبَتَتْ عليهمُ التُهْمة، يُريدونَ بذلك مَعْرِفَة أحكامِ شريعتِهم في مثلِ هذه الأحوال.

وتزولُ دَهشتُنا حين نعْلَمُ أنَّ هذا كُلَّه بتخطيطٍ وتوجيهٍ مِنْ يوسفَ عليه السلام: فهو يَعْرِفُ أنّ السارِقَ في شرعِ قومِه يعاقَبُ بالاسترقاق، فيصبحُ عَبْداً مَمْلُوكاً عِنْدَ مَنْ سرقَه، وما طَرْحُ السؤالِ بهذا الشكلِ إلا لحملِ الإخوةِ على لفظِ هذا الحُكْمِ بأنْفُسِهم، وتلك قمةُ الذّكاءِ في توجيهِ المحاوَرِ في الاتجاهِ الذي تَبْغِيه، دونَ أنْ يُدْرِك إلى أيِّ مدىً ستُوصِلُه.

اللطيفة الثانية: في التحوُّلِ المفاجىءِ في الحوارِ مِنَ الترغيبِ إلى الترهيب، في انسيابِ لُغوِي جميل؛ وذلك ببدء ذكْرِ الجَزاءِ والعِقاب، وحضْرِ التفاوُضِ في نوعِ العِقاب، حالَ ثبوتِ التُهمة. ولم نَشعرْ بحِدَّةِ الانتقال، بسببِ انشغالِنا بواقعِ الاستفهامِ الذي جاءَتْ به الآية.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿قالوا جزاؤُه مَنْ وُجِدَ في رَحْلِه فَهُوَ جزاؤُه كذلك نَجْزِي الظالمين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحَظَتِنا لأُسلوبِ الإجابةِ ودِقتِه اللُّغوية، حين نَسْمَعُ الإخوةَ يقولون: **﴿مَنْ وُجِدَ في رحلِه﴾** ترفُّعاً عَنْ قول: مَنْ سَرَقَ السِقاية، فهم، حتى في الاحتمالِ الجَدَلِيّ يَرْفُضون نِسبةَ السَرِقَةِ إلى أحدِهم إطلاقاً.

اللطيفة الثانية: في وضوحِ وصَراحةِ الإخوةِ في إجابتهم عَنْ نوعِ العِقابِ الواقع في شريعتهم على السارق، بل أكّدُوا على وُجوبِ إيقاعِ العقابِ بالسارقِ بتكْرَارِهم قول: **﴿فهو جَزاؤُه﴾**.

ذلك لِيقينِهم القَطْعِيّ أنْ لا أحد منهم سَرَقَ الصُواع. ولو شَكَّ أحدٌ منهم ولو باحتمالٍ ضئيل، أنَّ أحَدَهم أخَذَ الصُّواع. لما كانَ الجوابُ بهذا الجَزْمِ

الصريح؛ فهم متأكِّدونَ مِنْ بَراءَتِهم. ولم يَجِدُوا حَرَجاً في ذِكرِ نوعِ الجزاءِ المُعْتَمَدِ لديهم في شَرِيعَتِهم.

اللطيفة الثالثة: في لَحْظِنا لهذا التدرّجِ التصاعُدِيِّ في جوابِ الإخوةِ الواثقِ والصريح، الخالي منْ أيِّ خَوْفٍ أو تَرَدُّد.

فلقد ذَكَرُوا أولاً: الجزاء - وهو الاسترقاق.

ثم أكَّدُوهُ بالتَكْرار.

ثم ارْتَقَوْا في تثبيتِ تأكيدِه بقولِهم: ﴿**وكذلك نَجْزِي الظَّالمينَ**﴾.

ولنا أنَّ نتأمَّلَ هذا المشهدَ مِنْ قِصةِ يوسفَ عليه السلام: فهو موقفٌ مُدْهِشٌ غيرُ مُعْتَاد:

فسائقُ الاتهام، يَعْرِفُ أنّ أداةَ الجُرمِ موجودةٌ في حَوْزَةِ المتّهم، ويَدَّعِي عدمَ المعرفة، ويدَّعِي البحثَ عنها.

وهو يعرفُ أنَّ المُتَّهَم لا يَعْرِفُ بوجودِ أداةِ الجُرْمِ في حَوْزَتِه.

والمتهم، لا يَعْرِفُ أنَّ سائقَ الاتهامِ يَعْرِفُ أنه بريء.

والمتهمُ واثِقٌ مِنْ نفسِه ومِنْ براءَتِه، لأنه لم يَرْتَكِبْ جُرْمَ السَرِقَة، وهو يتحدَّثُ بعزةٍ وأنفَة.

وسائرُ الاتِّهام، يعرِفُ تماماً، أنّ التُهمةَ ستثْبُتُ على المُتَّهَم، نَظَراً لوجودِ أداةِ الجُرْمِ في حَوْزَتِه.

والمتهمُ واثِقٌ تَماماً أنَّ الحصيلةَ ستنتهي بتبرئته، وهو ينتظِرُ حُصولَ التفتيش لإثباتِ بَراءَتِه.

ذاكَ موقفٌ انقلبتْ فيه الأدوار، وهو غَاص، غنيٌ جداً بالمشاعرِ التي تعْتمِلُ في صَدْرِ كُلِّ واحدٍ منهم، وستتغيّرُ هذه المشاعِرُ معَ كلِّ مَرْحَلةٍ مِنْ مراحلِ هذا المشهد، على ما سنَرى في لاحقِ الآيات.

مواطن الإسترشاد بالآيات في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب عدم التسرع بالجزم القاطع لأي أمر كان لإحتمال حصول عكسه، وإن كان الإحتمال ضئيلاً جداً يكاد يكون معدوماً. ذلك أن الإنسان لا يمكنه الإدعاء بالإحاطة الكاملة بكمال العلم، والحيطة تقضي بترك هامش تحرك بسيط لإحتمال انقلاب الأمور على عكس ما هي سائرة عليه.

٢ - للدلالة على أن الأمور تسير أحياناً في الظاهر بعكس حقيقتها في الباطن، كمثل حال المحقق والمتهمين في الآيات السالفة: فالمحقق يعرف أن المتهم بريء، والمتهم واثق من براءته وهو لا يدري أن التهمة تلبسه لبساً، وإذ يخدم هذا الحدث فعلاً خيراً. فكم وكم من الأحداث المشابهة تقع لتخدم تخطيط الظلم والعدوان.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٨]

نصلُ مع هذه الآيةِ أخي المؤمن، إلى مرحلةٍ دقيقةٍ جداً، من هذا المشهدِ من قصةِ يوسفَ عليه السلام، وقد وصَلَ التأزُّمُ إلى أقصاه، بإجراءِ الكشفِ الحسيِّ الماديِّ على أحمالِ القافلةِ، بحثاً عن صُواعِ المَلِك المفقود.

نبدأُ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة.

يقولُ الله تعالى: ﴿**فبدأ بأوعيتِهم قَبْلَ وعاءِ أخيه، ثُمَّ استخرَجَها من وعاءِ أخيه**﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا أنَّ يوسفَ عليه السلام هو الذي قامَ بأعمالِ التفتيشِ بنفسِه، وهذا تدليلٌ على انتقالِ المشهدِ منْ موقعِ وجودِ القافلة، حيث أوْقفَتْها الحاشية، وعادَتْ بها إلى قَصْرِ العزيز.

وكان لِزاماً في نَظَرِ يوسفَ عليه السلام، أنْ يكونَ هو مَنْ يَفْتَحُ الأوعية، حتى لا يحصُلَ خَلَلٌ في تنفيذِ الخُطَّة، ولاستدراكِ رَدّةِ فِعْلِ الإخوة، حين يَظْهَرُ الصُّواعُ في رَحْلِ الأخِ الأصغر.

وكُنّا قد عَلِمنا، أنَّ يوسفَ عليه السلام، في إدارتِه الحكيمةِ لمراحلِ خُطّتِه، يُوكِلُ تنفيذَ بعضِ أجزائها إلى الحاشيةِ، ويقومُ هو بنفسِه بتنفيذِ بعضِ المراحلِ الدقيقة، ضَماناً لنجاحِ التنفيذ، ونحن نَتعلَّمُ مِنْ يوسفَ عليه السلام، كيفية التعامُلِ معَ الأحداث، فلا نَرْكَنُ إلى مَنْ لا اختصاصَ ولا خِبرة له في تنفيذِ أعمالٍ تَتَطَلَّبُ الخِبرةَ والاختصاص.

اللطيفةَ الثانية: في وقوفِنا عندَ قولِ الله تعالى: ﴿**فبَدَأ بأوْعِيَتِهِم قَبْلَ وعاءِ أخيه**﴾، وفي هذا إيضاحٌ لِمَعْلَم جديدٍ مِنْ معالمِ شخصيةِ يوسفَ عليه السلام، لم نَطَّلِعْ عليه قَبلاً وهو: دَفْعُ الشُّبْهَةِ بالتّعْمية:

وهذا دليلٌ على ذَكاءٍ شديدٍ حباهُ الله تعالى به.

فهو يعرفُ تماماً أينَ الصُّواع، وقد وَضَعَهُ بيدِه في رَحْلِ أخيه الصغير.

وهو أكْثَرُ شوقاً مِنْ أيِّ شخصٍ حَضَر المجلس، لاستخراجِ الصُّواعِ مِنْ مكانِه.

إلا أنه أظْهَر انضباطاً وضبطاً للنفس، وقامَ بمجهودٍ بَدنيٍّ هام، بالبحثِ والتنقيبِ في أمتعةٍ يَعْرِفُ تماماً أنها خاليةٌ مِنْ مَطْلَبِه.

فأقَرَّ بذلك القناعةَ في نفوسِ الإخوة، أنه جادٌّ في البحثِ عَنْ مفقودٍ لا يُعْرَفُ مكانُه.

وعَمَد إلى حبسِ الأنفاس، وشَدِّ انتباهِ الجميع في لحظاتِ قلقٍ وتأزُّمٍ نفسي شديد، والكلُّ ينتظِرُ انتهاءَ التفتيش.

فيكونُ قد أعَدَّ الجوَّ الملائمَ في المجلس، لِتَقبُّل لحظةِ استخراجِ الصُّواعِ مِنْ أمتعةِ أخيه الأصغر.

اللطيفة الثالثة: في لَحْظِنَا لعودةِ تأنيثِ المفقودِ في قولِ الله تعالى: **﴿ثُمَّ استَخْرَجها﴾** وبالعودةِ إلى الآياتِ السابقة، نُلاحِظُ أنَّ الله تعالى يقولُ:

في الآيةِ السبعين: **﴿جَعَل السِّقاية﴾** بالتأنيث.

وفي الآيةِ الثانيةِ والسبعين: **﴿قالوا نفقِدُ صُواعَ الملك ولِمَنْ جاءَ به﴾** بالتذكير.

وفي الآيةِ الخامسةِ والسبعين: **﴿قالوا جَزاؤُه مَن وُجِدَ في رَحْلِه﴾**، بالتذكير فنُلاحِظُ أنها تُؤنِّثُ في حقِ يوسفَ عليه السلام، وتُذَكِّرُ في حقِ الآخَرِين.

وتفسيرُه: أنّ مكانَةَ يوسفَ عليه السلام، في مرتبتِه الحاكمِيّةِ العالية، تجعلُ من هذه الأداةِ القيمةِ المرتفعةِ الثمن، سِقايةً يَكيلُ بها الكَيْلَ للناس، فهي على أهميتِها، تضْعُفُ في يدِه.

أمّا في حقِ الناس، فهي تَبْقَى صُواعَ الملِك، الذي يَشْهَدُ أهميةً ليسَ فقط مِنْ قِيمتِه الماديّة، بل مِنْ رَهْبَةِ نِسْبَتِه إلى المَلِك.

فانظُرْ أخي المؤمن، إلى دِقّةِ القرآنِ الكريمِ في التعبير.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿كذلك كِدْنا ليُوسُف ما كانَ ليأخُذَ أخاهُ في دينِ المَلِك﴾**.

في هذا الشطر مِنَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ هذا التكريمِ الإلهيِّ ليوسفَ عليه السلام، في جماليةٍ لُغويةٍ فائقة.

يقولُ الله تعالى: ﴿**كذلك كِدنَا ليوسف**﴾. أي: جَمعْنَا الكَيْدَ له، وذلك باستجماعِ كافةِ العناصرِ الصَعبةِ التحقيق، حتى يصِلَ إلى هذه اللحظةِ الحاسِمة، بنجاحِ خُطَّتِه، فكانَ تيسيرُ الله تعالى هو الأساس، وما تَسَلْسُلُ الأحداثِ على النحوِ الذي رأَيْنا، إلا انصياعٌ لهذا الأساس:

فحَصَلَ القَبولُ والتوافُقُ مِنَ الأخِ الأصغرِ بدايةً، على التَعاوُنِ لوضعِ الصُّواعِ في رَحْلِه.

ثم تَيسيرُ الظروفِ لوضعِ السقايةِ في رحلِ أخيه، بعيداً عن الأعين.

ثم عدمُ انتباهِ الإخوة، وصرفُ أنظارِهم عنِ النظرِ في الرِّحال.

ثم قبول الأخوة للاحتكام إلى شريعتهم عند إصدار الحكم.

ثم استخراجُ الصُّواعِ مِنْ رَحْلِ أخيه الأصغر، على ما رَأينا في الآيةِ.

اللطيفة الثانية: في لَحظِنا، أنه حتى وإنْ كانَ فضلُ الله تعالى بالمعونةِ حاضراً. إلا أنه ليس مُطْلَقاً مِنْ غيرِ قيد، تثبيتاً لبشريةِ الأنبياءِ والرُّسُلِ الكِرام، فهو يُعْطي ويَمْنَع، ويُعْطِي بمقْدار، ويسمحُ لِسُنَنِهِ الكونيةِ بالجري على أنبيائه ورُسُلِه، كمثلِ الألمِ والجوعِ والعطش، والتعرُّضِ للظُلْمِ والسَجْن، وإغلاقِ الغيب ما خلا الكشفَ والإلهام: وفي قصة يوسفَ عليه السلام، نرى اثنين مِنْ أنبياءِ الله تعالى: يعقوبَ عليه السلام، ويوسفَ عليه السلام، يُعطِيهما الله تعالى مِنْ عِلْمِهِ بمقدار، ولا يَفْتَحُ لهما كُلَّ أَبوابِ الكشْفِ والغَيْب، ويُؤَيِّدُهما بالصبرِ والحكمة، والفِقهِ والدراية.

اللطيفة الثالثة: أنّ الله تعالى، أرَادَ أنْ يُبَيِّنَ لنا تفصيلاً وإيضاحاً، لماذا قامَ يوسفُ عليه السلام، بحملِ الإخوةِ على الاحتكامِ إلى شريعتِهم، بدلَ الاحتكامِ إلى شريعةِ مِصْرَ في ذلكَ الزمان:

ذاك أنَّ القانونَ المعمولَ بهِ في مِصْر، يقْضِي بأَنْ يُغَرَّمَ السارِقُ مادِّياً، فيدفَعَ مبلغاً مُوازِياً لما سَرَق أو لقِيمتِه.

وهذا هو حِكْمُ دِينِ الملِك.

وبموجَبِ هذا الحُكْم، فهو لنْ يستطيعَ أن يحتفِظَ بأخيه، وهذا هو هَدَفُه من كلِّ هذه الواقعة.

أمَّا بموجَبِ إعمالِ حُكْمِ شريعةِ يعقوبَ عليه السلام، فحُكْمُ السارقِ الاسترقاق، وهذا ما يُريدُهُ يوسفُ عليه السلام ظاهراً.

ولنْ يستطيعَ إعمالَ هذه الشريعة، إلا بطلبهم، ولقد طَلَبُوا.

فهذا معنى قولِ الله تعالى: **﴿ما كانَ ليأخُذَ أخاه في دينِ الملك﴾**.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿إلا أنْ يشاءَ الله نَرْفَعُ درجاتٍ منْ نشاء وفوقَ كُلِّ ذِي علمٍ عَليم﴾**.

في هذا الشطرِ من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لحظِنا لهذا التكريمِ الثاني ليوسفَ عليه السلام، في الآيةِ الواحدة. فالله تعالى يقولُ عنه: **﴿نَرْفَعُ درجاتٍ مَنْ نشاء﴾**.

ونَسْمَعُ قولاً مُطابِقاً في الثناءِ على سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام، في سورةِ الأنعام، الآيةِ الثالثة والثمانين، إذْ يقولُ الله تعالى: **﴿وتِلْكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قَوْمِه نَرْفَعُ درجاتٍ مَن نشاء إنْ ربَّكَ حكيمٌ عليم﴾** [الأنعام: ٨٣].

وأيُّ شهادةٍ وتكريمٍ أعلى مِنْ هذه الشهادة؟

وتنْسَاقُ هذه الكرامَةُ على واقعِ حالِ الخَلْق، فالله تعالى يَرْفَعُ مَنْ يشاءُ مِنَ الخَلْق، ويَهَبُهم مِنَ العِلمِ ما لا يَهَبُ آخَرين، ومِنَ العِلْمِ ما هو مُكْتَسَبٌ بالتعلُّم. ومنه ما هو موهبةٌ وعطاءٌ منَ الله تعالى.

ومنَ الناسِ من يُحْسِنُ استخدامَ العِلْمِ بما يُرضي الله تعالى. ومنهم مَنْ يستعمِلُه في المعصيةِ والفَسادِ والإفساد، وهذا بابٌ واسعٌ منْ أبوابِ الوَسْوَسةِ والغِوايةِ الشيطانيةِ للإنسان، في استغلالِ ما فَتَحَ الله تعالى على الناسِ منْ فتوحِ العلم والتقدم، والاختراعاتِ والتِقْنِياتِ الحديثة. ونحن نَلْحَظُ باستغرابٍ ودَهْشَة، أنَّ الشيطانَ أخْزَاهُ الله تعالى، لم يَدَعْ فتحاً علمياً واحداً، مَهما كَبُرَ أو صغُر، إلا وأدْلى فيه دَلْوَه، وذَرَّ فيه قَرْنَه، وجعَلَ فيه باباً لِمفْسَدةٍ أو مَعْصِية. والحديثُ في هذا البابِ يَطُول.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عند قولِ الله تعالى: ﴿**وفَوْقَ كُلِّ ذِي علم عليم**﴾ وفي هذا، إظهارٌ لعظمةِ الخَالِقِ سبحانَه وتعالى، وتذكيرٌ للنَّاسِ بضآلَةِ وضَحَالَةِ عِلْمِهم، فلا يُصيبُهم الغُرورُ بما آتاهُم الله تعالى مِنْ فَضْلِه عليهم بنِعْمَةِ العِلم، ولقد حَصَل، فاغْتَرَّ كثيرٌ مِنَ الناسِ بما نَالُوا مِنْ نصيبِ العِلم، وتعَالَوا على العِزةِ الإلهية، وظَنُّوا أنهم مَلَكُوا كاملَ العِلم، وكامِلَ الحقيقة، وبَلَغَ بهم الغُرورِ أنْ أنْكَرُوا وُجودَ الخالقِ سبحانَه وتعالى، فَعَمِيَتْ أبصارُهم عَنْ حقيقةِ جَهْلِهم، فقَسَمَهُمُ الله تعالى وجَعَلَهُمْ أحاديث.

هكذا في القرونِ الغَابِرة، ومِثْلُهم في أيامِنا، وليس فيهم نبيهٌ واحدٌ ينْظُرُ قليلاً إلى الوراء، فيَرى العِبْرَة بغيرِه، فيَعْتَبِر..

اللطيفة الثالثة: لُغوية، في وقوفِنا عِنْدَ جَمالِ وقْعِ الجِرْسِ في آذانِنا ونحن نقرأ: ﴿**وفَوْقَ كُلِّ ذِي علمٍ عليم**﴾ فقد جاءَتْ كلمةُ عليم، غيرَ مُعرفةٍ بأل التعريف، وإنْ تَكُنْ حقيقةً هي كذلك.

إذ إنّ المعنى هو: والله تعالى هو العليمُ فَوْقَ كلِّ ذِي علم، لكنّ الصِياغَةَ في الآيةِ أجملُ وأعلى.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب توسيد الأمر لأهل الإختصاص في المسائل الدقيقة التي تحتاج دقة وإتقاناً، ومن الخطأ التهاون في تنفيذ الأمور الصعبة وإيكالها إلى من لا خبرة أو اختصاص عندهم، فيكون الضرر الحاصل أشد وأعقد، ولو يستوجب إصلاحه جهداً أكبر وكلفة أعلى.

٢ - للدلالة بقولنا: «وفوق كل ذي علم عليم». على أن الإنسان، مهما أوغل في التقدم العلمي والفتوحات والإكتشافات والإختراعات فإن علمه يبقى قاصراً، لأنه لا يحصل على هذا العلم إلا بإذن من الله تعالى، وهو العليم الخبير الذي لا حدود لعلمه، فليدرك هذا الإنسان حدود علمه ومعرفته، وقصور ذهنه عن بلوغ ما لم يأذن به الله تعالى، وليتواضع لله وليشكره على ما آتاه، ذلك خير لهم لو كانوا يعلمون.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥٩]

تُتابعُ معنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، هذا المشهدَ مِنْ قِصةِ يوسفَ عليه السلام، وقد وصَلَتْ خُطَّتُهُ إلى غَايتِها، بأَنْ ظَهر الصُّواعُ المفقود، وَوُجِدَ في رَحْلِ الأخِ الأصغر، وصارَ إخوةُ يوسفَ عليه السلام، محطَّ أنظارِ الجميع، وقد دفعوا عنْ أنفُسِهم تُهمة السرقةِ دَفْعاً شديداً في سابقِ الآيات، ما حَمَلَهُمْ على

إعلانِ استعدادِهم لتطبيقِ شريعتِهم على السارق، فيما لو كانَ مِنهم، والعقابُ في شريعتِهم، هو الاسترقاق.

فلنتأمَّلِ الآية الكريمة، ولنستمِعْ إلى جوَابِهم.

يقولُ الله تعالى: ﴿قالوا إنْ يَسْرِقْ فقد سَرَقَ أَخٌ له مِن قَبْلُ﴾.

في هذا الشطرِ مِنَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ ما صدَرَ منهم مِن اتهامٍ ليوسفَ عليه السلام، مِنْ سرقةٍ، معَ عدمِ الحاجةِ إلى هذا الاتهام، للخلاصِ من هذا الموقفِ الذي هُمْ فيه.

إلا أنّ أهمية هذا الإعلان، تنبُعُ مِنْ ضرورةِ إخراجِ مكامنِ السرائر، وهذا ما لا يحصُلُ إلا في مثلِ هذه المواقف.

وهذه حقيقةٌ علميةٌ نتوقّف عندَها قليلاً:

فلقد يُضمِرُ لكَ مُحَدِّثُكَ البُغْضَ وهو يُظْهِرُ لك الوُد، ويستطيعُ أنْ يستمِرَّ في إظهارِ الوُد، ما دامَ مُمْسِكاً بزمامِ حُضورِ وعيه، وكَبتِ مشاعِرِه..

أمّا حالُ الغضب أو الإحصار، فيصبحُ الضَبطُ الواعي أضْعَفَ مِمَّا يسْمَحُ للمشاعرِ المكبوتةِ الخفية، بالظهورِ إلى العَلَن: إمّا بكلماتٍ نُسَمِّيها زلةَ لسان، أو تصَرُّفٍ نابٍ، أو مجردِ إعراضٍ، أو تذمُرٍ أو زفرات..

وهذه أصدقُ بكثيرٍ من كلِ دِيباجاتِ الكلامِ المُنَمق.

ولقد سقطَ إخوةُ يوسفَ عليه السلامُ في هذا الامتحان.

فلقد أُحْصِروا إحصاراً شديداً، أخرَجهم عنْ طَوْرِهم، فما استطاعوا كبْتَ مشاعِرِهم حِيال يوسفَ عليه السلام وأخيه، فكانَ أوّلَ ما قالُوا دِفاعاً عَنْ أنفسِهم: ﴿إنْ يسْرِقْ فقد سَرَقَ أَخٌ له من قَبْلُ﴾.

اللطيفة الثانية: في قولِهم: ﴿**أخ**﴾ بعدمِ التعريف، وذلك لظَنّهِم أن العزيزَ لا يَعْرِفُ شيئاً عَنْ مسألةِ يوسفَ عليه السلام، ونَفْهَمُ منها التبعيد، وكأنَّهُمْ قصَدُوا بذلك إرضاءَ نُفوسِهم بالفصلِ التامِ ما بينَ مجموعتِهم المتضامنةِ كوَحْدَةٍ مُتفاهِمَة، تعملُ بتناسُقٍ تام، وبين يوسفَ عليه السلام، والأخِ الأصغر، مِنْ جهةٍ أُخرى، فتقعُ العبارةُ بدِلالةٍ عاليةٍ إذْ قالوا: ﴿**أخٌ له**﴾.

اللطيفة الثالثة: في إجراءِ مُقارنةٍ بينَ هذا الموقف، والموقفِ السابقِ في الرحلةِ السابقة، حين جاؤُا أولَ مرةٍ يطْلُبونَ المُؤَن.

ففي المرةِ السابقة، لم يَذْكُروا ابتداءً وجودَ أخٍ أصغرَ لهم، ما زالَ عِنْدَ أبيهم، لم يَحْضُرْ معَهم.

فدفَعَهُمْ يوسفُ عليه السلام إلى الحديث عنه، فتحدَّثُوا عَنْه عرَضاً، ولم يَجْعَلُوا للحديثِ عنه أيَّ اهتمام.

فاستَمْسَك يوسفُ عليه السلامُ بمجردِ ذكرِه، وانقلبتِ الأُمورُ كلُّها، رَأْساً على عَقِب، وصارَتْ مسألةُ إحضارِهِ هي على رأسِ الأمورِ أهمية.

وها هُمْ الآنَ يَذْكُرونَ يوسفَ عليه السلامُ عرَضاً بقولِهم: ﴿**إنْ يسرِقْ فقد سَرَقَ أخٌ له مِن قَبْل**﴾.

فلم يجِدُوا مِنَ العزيزِ أي اهتمامٍ بمعرفةِ التفاصيلِ عَنْ هذا الأخِ الجديد الذي يتحدَّثُونَ عنه.

وقد كان يَنْبَغِي للحاذقِ فيهم، أنْ يتساءَل عَنْ سببِ عدمِ سؤال العزيزِ عَنْ هذا الأخِ الغائب، كما سألَ عنِ الأخِ الأصغر، في المرةِ السابقة.

لكنّ الله تعالى، شاءَ أنْ يصرِفَهم عَنْ هذا التساؤُل.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**فأسَرَّهَا يوسفُ في نفْسِه ولم يُبْدِها لَهُم قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مكانا والله أعلم بما تصِفُون**﴾.

في هذا الشطر الأخير منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في التقديمِ والتأخيرِ الذي نَلْحَظُهُ في العِبارة:

فحينَ نسمَعُ: ﴿**فأسَرَّهَا**﴾ ونَسْمَعُ: ﴿**ولم يُبْدِهَا لَهُم**﴾ ونَفْهَمُ أنَّ المقصودَ هي العبارةُ التالية، على الإسرارِ وعدَمِ الإبداء.

ويكونُ معنى الآية: فأسَرَّ يوسفُ الإجابةَ في نفسِه في ذلكَ الوقت، ولم يُبْدِها لهم في تلكَ الحالة، وأجَلَّ الحديثَ بها إلى وقتٍ آخر، لكنّه قالَها في نفسِه إذْ قال: ﴿**أنتم شرٌّ مكانا والله أعلمُ بما تصِفُون**﴾.

اللطيفة الثانية: في تعَرُّفِنا إلى مَعْلَمٍ جديدٍ من معَالِمِ شَخصيةِ يوسف عليه السلام:

فلقدِ اتّهمُوهُ علَناً بالسَرِقة، وهو مِنْها بريء.

وَهِياجُ النفسِ للدفاعِ عنْ حالِها، قريبٌ جداً عِنْدَ أغْلَبِ الناسِ وخصوصاً عندَ المقْدِرَة.

ويوسفُ عليه السلام، في حالٍ منَ القُوةِ والسلطة، تَسْمَحُ له بالاقتصاصِ مِنهم، إمّا علناً، أو دون إفصاحٍ عَنْ حقيقتِه..

إلا أنه آثَرَ الصَمْتَ العَلَنِيّ، وأعملَ ضَبْطَ النفس، ولم يُعَطِّلْ خُطَّتَه التي بدأ بها، ولم يَنْفَعِل، رَغْمَ تعَرُّضه للتحريض.

فهو بذلك، يُرِينا جانبَ التعقُّلِ، والصبر والحِكمةِ العالية، في التعاطِي معَ الأحداث.

بخلافِ إخوتِه الذين سارَعُوا إلى الانفعال. فكالوا له الاتهامَ جُزَافا.

اللطيفة الثالثة: في قول يوسف عليه السلام: ﴿**والله أعْلَمُ بما تصفُون**﴾.

فهذا تعليمٌ لنا وإرشاد، وذلك بإيكال الأمرِ إلى الله تعالى، حالَ وقوعِ ظُلْم لا نستطيعُ دَفْعَه؛ ففيه تهدئةٌ للنفس، ويقين، بأنْ الله تعالى يَحْفَظُ حقوقَ المظلوم، حتى ولَوْ بعد حين، حتى ولو إلى يومِ الدين.

وتلك مِيزةٌ لا نَجِدُها إلا عندَ المؤمنين الصابرين، القانتين لله تعالى. وقد امتدَحهم الله تعالى في كتابِه العزيز إذْ قال: ﴿**وبَشِّر الصابرينَ ﴿١٥٥﴾ الذين إذا أصابتهم مُصِيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنّا إليه راجعون ﴿١٥٦﴾**﴾[1].

وجميلٌ منا، في النهاية، أنْ نتأمَّل الحالَ النفسيةَ للإخوةِ في هذا المشهدِ منْ مشاهدِ القِصة:

فلقد تحوَّل شعورُهم منَ الحبُورِ عند ملء الكيل إلى الدهشةِ والاستغرابِ عند إيقافِهم ورَميهم بالسرقة.

ثم تحوَّلَتِ الدهشةُ إلى تفاعُلٍ معَ الحَدَث، وطلبِ تطبيقِ شريعَتِهم، حالَ وُجودِ الصُّواعِ في رَحْلِ أحدِهم.

ثم تحوَّل التفاعُل إلى يقين بالبراءة، واطمئنانٍ داخلي بأنَّ المسألة كُلَّها مجردُ ظنٍ وخطأ.

ثم انقلبَ اليقينُ إلى صدْمَةٍ حين استخرجَ العزيزُ الصُّواعَ منْ رحلِ الأخِ الأصغر.

ثم تحوّلتِ المشاعرُ عِنْدَ مرورِ الصَّدْمَة، وتبدَّلَتِ مِنَ العزةِ والرِفعةِ والأنفة، إلى الصَّغَارِ والضِّيقِ والإحصار.

ثم تصاعدَتْ هذه المشاعرُ لتتحوَّلَ إلى غضبٍ على الأخ الأصغر.

ثم توسَّعَتْ لتَشملَ مِنْ جديدٍ يوسفَ عليه السلام، رَغْمِ غيابه..

---

(١) [سورة البقرة، الآية: ١٥٥-١٥٦].

ثم اتجهتْ مشاعِرُهم إلى تبْرِئةِ أنفسِهم علناً، بإعلان فضْلِ الأخِ الأصغر عنهم، وإلصاقِ التُّهَمِ بيوسفَ عليه السلام وأخيه.

إلى أنْ يصِلُوا إلى حالة الغَمِّ الشديد، على ما سنَرى في لاحق الآيات.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الأزمات تكشف ما في الصدور، وتفضح المستور، فما أخفت الوجوه من مشاعر دفينة. تطفو على السطح عند الضيق والإحصار، ثم يعقبها الندم بعد انقشاع عاصفة الغضب. والأولى أن تكون القلوب في الأصل ناصعة بيضاء نقية سمحة، حتى إذا ما جاءت ثورة الإنفعال، كان الظاهر كالباطن، وما وجد الشيطان في النفوس إلا النقاء انكفأ خاسئاً مكسوراً على عقبيه.

٢ - للدلالة على وجوب ضبط النفس حال الإستفزاز، حتى وإن كان الإستفزاز غير محق، لما يستتبع ذلك من الغضب، مع تصاعد حال التوتر بين الطرفين، مما يؤدي إلى مستويات عالية جداً من الحنق قد ينتج عنها ذيول لا تحمد عقباها، غير متوازية إطلاقاً مع مسبب التوتر الأساسي، لكنها فرصة الشيطان اللعين للإيقاع بين الناس بدفعهم إلى مراحل متقدمة في التناحر والتنافر والخلاف، وهذه هي سعادته الكبرى.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦٠]